نظرة إسلامية حول الولاية التكوينية

العلامة المرجع

السيد محمد حسين فضل الله



دار الملاك

حقوق الطبع محفوظة للناشر

الطبعة الأولى

١٤٣١ هـ - ٢٠١٠ م

دار الملاك طباعة - نشر - توزيع

بيروت - لبنان - حارة حريك - قرب مستشفى الساحل

تلفاكس ٠١/٤٥٠٧٦٩ ص. ب ٢٥/١٥٨ الغبيري

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

تمهيد:

يتصوّر بعض العلماء أنّ الله جعل لأنبيائه ورسله ولايةً تكوينيّةً، يتصرّفون من خلالها بالكون، فيغيّرون الأشياء وينقلونها من حال إلى حال، ويجمّدون الأسباب ويصنعون أسباباً جديدةً للأشياء، بإذن الله، من خلال ما أعطاهم الله من السلطة على الكون في حركة التكوين، كما أعطاهم السلطة الشرعيّة في إدارة شؤون الناس وحكمهم وبثّ قوانين الشّريعة بينهم وهدايتهم إلى دينه.

وقد أخذت نظريّة «الولاية التكوينية» بعداً عقائديّاً حاسماً متنوّعاً؛ فتارةً تضيّق المسألة لتبقى في دائرة المعجزة، وأخرى توسّعها

لتشمل كلّ الكون، حتّى إنّ البعض يرى أنّ الله فوّض للأنبياء وللأئمّة ﷺ أمر التصرّف في الكون في حركته الخفيّة والظاهرة، بحيث إنّهم يملكون القدرة على تغيير ما يريدونه في الكون وفي الإنسان، من دون أيّة قدرة ذاتيّة مستقلّة؛ بل من خلال القدرة التي مكّنهم الله منها وأعطاهم إيّاها؛ فهم القادرون بقدرة الله، الأولياء على الكون بولايته، وهذا التوجيه يبعد المسألة ـ في رأيهم ـ عن الشّرك والغلوّ والانحراف عن خطّ العقيدة المستقيم.

وربّما كان للاعتقاد بهذه النّظريّة أثره على طريقة التوجّه الذي يعيشه الإنسان في دعائه لقضاء حاجاته، حيث نجد أنّ بعض النّاس يتوجّهون إلى الأولياء ليُرزقوا بالولد، أو ليوسَّع عليهم في الرزق، أو لدفع خطر داهم، أو عدوّ غاشم، أو ما إلى ذلك... وقد دأبت بعض الجماعات على أدعية تتوجّه

مباشرةً إلى الأئمّة والأولياء، ولو من باب كونهم الوسائل إلى الله تعالى، فيطلبون منهم الشفاعة والنجاة من النار وما أشبه ذلك.

أفكار ساذجة:

كما أنّنا قد نلمح ـ في بعض التصوّرات الشّعبيّة ـ أنّ نذر النّذور للأئمّة أو الأولياء يكاد يعفي الإنسان من كلّ أخطائه وذنوبه وآثامه في الحياة؛ لأنّ حبّ هؤلاء علّة تامّة لدخول الإنسان إلى الجنّة؛ إذ النار لا تمسّ من في قلبه حبٌّ النبيّ ﷺ أو أهل بيته ﷺ؛ وكأنّ العلاقة مع النبيّ ﷺ وأهل بيته ﷺ هي علاقة شخصيّة، تتحرّك في إطار المجاملات التي يقوم بها النّاس في حياتهم العامّة، ليحصلوا من خلالها على بعض عطايا هذا الحاكم أو الزّعيم أو ما إلى ذلك.

وإذ نشير هنا إلى ما ربّما يكون بعض

نتاجات هذه الحالة الاعتقاديّة، فإنّ النقاش فيها له وجهة أخرى وبابٌ آخر غير ما نحن فيه هنا؛ إذ سنقتصر هنا على الفكرة ذاتها، وهي فكرة أنّ للأنبياء أو الأولياء الولاية على الكون وما فيه، وذلك بإذن الله؛ لوضوح أنّ فكرة كونهم أولياء من دون إذنه تعالى يمثّل شركاً صراحاً، ولا نقاش لأحد في بطلانه وعظيم إثمه.

وربما يتخيّل بعض النّاس أنّ مخلوقات مثل الجنّ أو الملائكة أو الإنس، تمتلك قدراتٍ غير عاديّة لا تتناسب مع طبيعة المخلوق العاديّ، ما يؤدّي بهم إلى الاعتقاد أنَّ في شخصيّة هذه المخلوقات سرّاً من الألوهيّة، فهي تتمتّع بالقدرات الخارقة مما يدخل في علم الغيب، أو في التحرّك غير الطبيعي في قطع المسافات، والطّيران في الفضاء، والتحرّك في السّماء، أو في الأعمال

المعجزة التي يقومون بها من إحياء الموتى وإبراء الأكمه والأبرص، وما إلى ذلك من أمور لا تحصل إلا لمن يملك في ذاته بعضاً من الألوهيّة.

ولن تكون الألوهيّة شيئاً يأتي من الخارج؛ بل لا بدّ من أن تتأتّى من الارتباط العضويّ بالإله الواحد المهيمن، كالبنوّة التي توحي بوجود شيء منه داخل ولده، نظراً إلى طبيعة إرث الأبناء لخصائص الآباء... هذه المزاعم دحضها القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ﴾ [المؤمنون: ٩١]، باعتبار أنّ هذا التّفكير لا يخلو من السّذاجة؛ لأنّ البنوّة تمثّل نوعاً من أنواع المحدودية والحاجة التي يستحيل وجودها في واجب الوجود، وهو الغني عن عباده في كلّ شيء، وليس هناك أيّ فراغٍ في ذاته لتسدّه مثل هذه الأمور.

أمّا هذه القدرات الخارقة والأعمال المعجزة، فمن السّهل أن يمنح الله عباده بعضها، تماماً كما يمنح بعض ظواهره الكونيّة الخصائص العظيمة، في ما يركّزه في داخلها من قوانين طبيعيّة؛ لأنّه على كلّ شيء قدير، وليس من الضّروري أن تكون هذه الأمور خاضعةً لعناصر ذاتيّة بالمعنى الإلهيّ للمسألة؛ لأنّه لا دليل على ذلك، ولا مقتضى له.

وما كان يعتقده المشركون في زمن النبيّ ﷺ، أو بعضُهم، من أنّ للأصنام أسراراً غيبيّةً، وأنّها قريبة من الله تعالى، ولذلك فإنّ عبادتها تمثّل تقرّباً إليه عزّ وجلّ، كما جاءت حكاية لسانهم في قوله تعالى: ﴿مَا نَعۡبُدُهُمۡ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلۡفَىٰٓ﴾ [الزمر: ٣]، هو مجرّد أوهام وتخرّصات لا دليل عليها.

وفيما يلي، سنبحث نظريّة الولاية التكوينيّة ضمن النّقاط الآتية:

أوّلاً: في مفهوم الولاية التّكوينيّة.

ثانياً: موقعها في المعتقد الإسلاميّ.

ثالثاً: في إمكان الولاية التكوينيّة عقلاً ووجه الحاجة إليها.

رابعاً: الجانب الاستدلاليّ، حيث سنستعرض بعض الأدلّة الأساسيّة على ثبوت الولاية التكوينيّة، وسنعمد إلى مناقشتها للوصول إلى النّتيجة التي تنسجم مع الأدلّة في هذا المجال.

مفهوم
الولاية التّكوينيّة

إنّ في تفسير الولاية التكوينيّة احتمالات؛ بعضها باطل ومستحيل، وبعضها ثابت لا شكّ فيه، وبعضها ممكن ولكن لا دليل عليه:

الاحتمال الأوّل: إنّ للولاية دوراً تنفيذياً وإداريّاً يتمثّل في سدّ النقص في المولّى عليه؛ فالأب ـ مثلاً ـ يكون وليّاً على الطّفل، على أساس أنّ الطفل لا يستطيع أن يتحرّك بما يصلحه، أو بما يرتّب أوضاعه، فيأتي الأب (الولي) ليكمل هذا النقص.

وهذا الاحتمال باطل في المقام؛ لأنّ الله سبحانه أقام الكون على أساس نظام دقيق

خال من أي نقص أو ثغرة ﴿ٱلَّذِي خَلَقَ سَبۡعَ سَمَٰوَٰتٖ طِبَاقٗاۖ مَّا تَرَىٰ فِي خَلۡقِ ٱلرَّحۡمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٖۖ فَٱرۡجِعِ ٱلۡبَصَرَ هَلۡ تَرَىٰ مِن فُطُورٖ﴾ [الملك: ٣] والأنبياء - وفقاً لما قدّمهم به القرآن الكريم - ليسوا جزءاً من النظام المذكور، ولا يشغلون دوراً أو مهمة وظيفيّة تجعلهم جزءاً متمّماً للنقص المذكور على فرض وجوده؛ بل إنّ مهمّتهم الرساليّة هي أسمى من ذلك بكثير، هذا من جهة، ومن جهة أخرى، فإنّا نسأل: هل هناك نقص في إدارة الله تعالى للكون حتى يأتي بالأنبياء ليدبّروا له الكون؟ لا، ليس هناك نقص البتّة، فهو الغنيّ المطلق عن عباده وهم الفقراء إليه.

وبعبارة أخرى: إذا كان الله سبحانه وتعالى قد رتّب الكون كلّه من أصغر ذرّة إلى أكبر ذرّة بشكل دقيق ليس فيه أيّ خلل، فأيّة حاجة للولي بالمعنى المذكور؟! فإذا قلنا إنّ الأنبياء عليهم السلام

هم أولياء الكون، وأولياء النّعم، والأئمّة ﷺ - أيضاً - أولياء الكون، وأولياء النّعم، فذلك يعني الإيمان بالنّقص في هذا الخلق، مع أنّه ليس هناك نقص حتى يكملوه بالولاية.

الاحتمال الثّاني: أن يكون المراد من الولاية التكوينيّة، أنّ الله فوّض إلى الأنبياء والأئمّة أمر تدبير الكون وشؤونه، بمعنى أنّهم هم الذين يأمرون الشّمس بأن تشرق ويدبّرون لها إشراقها، وهم الذين يأمرون البحار بأن تتلاطم أمواجها، وهم الذين يدبّرون العالم بما فيه من الكواكب والنّجوم بشكل فعليّ... باختصار: إنّ الله سبحانه وتعالى جعل دفّة العالم بأيديهم وفوّضهم إدارة الكون.

أقول: إنّ التّفويض في بعض معانيه باطل بالضّرورة؛ بل ربما كان الاعتقاد به يقارب الكفر أو الشّرك، كما لو كان القائل

بالتّفويض يفرض استقلالهم ﷺ عن الله في التّأثير، ولو بقاءً، ونحوه الاعتقاد بأنّ الله كفّ يده عن التأثير في الكون، فهو لا يتدخّل في إدارة شؤون الكون بعد أن أوكلها إلى غيره. ولا أعتقد أنّ أحداً من العلماء يقول بالتفويض بهذا المعنى أو ذاك، وقد قام الدّليل القرآني وغيره[1] على بطلان التفويض. نعم، يبقى

---

(١) أما من الكتاب، فالآيات التي استدلّ بها على بطلان التفويض كثيرة، منها قوله تعالى: ﴿أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَابَهَ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ قُلِ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾ [الرعد: ١٦]، وفي آية أخرى: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَفْعَلُ مِنْ ذَلِكُمْ مِنْ شَيْءٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الروم: ٤٠].

وأمّا الروايات الواردة في رفض القول بالتفويض، فهي كثيرة أيضاً، من قبيل ما رواه الصّدوق في عيون أخبار الرضا بسنده إلى ياسر الخادم، قال: قلت للرضا ﷺ: ما تقول في التفويض؟ فقال: إنّ الله تبارك وتعالى فوّض إلى نبيّه ﷺ أمر دينه، فقال: «﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا﴾ [الحشر: ٧]، =

احتمال ثالث في تفسير التّفويض، وهو أن يراد به أنّ الله فوّض تدبير شؤون الكون إلى النبي والأئمّة مع بقائه فعلاً في موقع التّأثير والفاعليّة، وهذا المعنى لا دليل عليه؛ بل الدّليل على بطلانه، كما سيأتي، كما أنّه يلتقي مع بعض الوجوه الآتية.

= فأما الخلق والرزق فلا. ثم قال: إنّ الله عزّ وجلّ خالق كل شيء، وهو يقول عزّ وجلّ: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَفْعَلُ مِن ذَٰلِكُم مِّن شَىْءٍ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الروم: ٤٠]» (راجع: بحار الأنوار، ج١٧، ص ٧). ومنها: ما رواه الصدوق في كتاب الاعتقادات، أنَّ زرارة قال لأبي عبدالله عليه السلام: «إن فلاناً يقول بالتفويض، قال عليه السلام: وما التفويض؟ قلت: يقول: إنّ الله عزّ وجلّ خلق محمداً صلى الله عليه وآله وعلياً عليه السلام ثم فوّض الأمر إليهما فخلقا ورزقا وأحييا وأماتا. فقال عليه السلام: كذب عدوّ الله، إذا رجعت إليه فاقرأ عليه الآية التي في سورة الرعد: ﴿أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَآءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِۦ فَتَشَٰبَهَ ٱلْخَلْقُ عَلَيْهِمْ ۚ قُلِ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّٰرُ...﴾ [الرعد: ١٦]، فانصرفت إلى الرّجل فأخبرته بما قال الصّادق عليه السلام، فكأنما ألقمته حجراً، أو قال: فكأنما خرس» (الاعتقادات، ص ١٠٠).

الاحتمال الثالث: أنّ الولاية التّكوينيّة تعني أنّ الله جعل الأنبياء والأئمّة موظّفين مثل الملائكة، ومهمّتهم الوظيفيّة هي إدارة الكون في كلّ حركته ونظامه. وهذا أيضاً لا دليل عليه؛ بل هو مرفوض؛ فالأئمّة والأنبياء ليست وظيفتهم إدارة الكون؛ بل هم فوق ذلك، ومهمّتهم الرّساليّة أشرف وأعلى من ذلك، على أنّ الكون يتحرّك في ضوء القوانين والسّنن المودعة فيه، والتي أرادها الله أن تحكم كلّ نظامه وحركته، وقد استطاع الإنسان في مسيرته العلميّة أن يكتشف الكثير من هذه القوانين ويربط الأشياء ويتعرّف إلى أسرارها وخصائصها.

الاحتمال الرّابع: أن يكون المقصود بالولاية التّكوينيّة أنّ الله مكّن الأنبياء من أن يقوموا ببعض الأعمال التي هي خارقة للعادة، من قبيل ﴿أَنِّيٓ أَخۡلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ

كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ [آل عمران: ٤٩]، ومن قبيل ﴿وَأُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ وَأُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ [آل عمران: ٤٩].
أو كما في قصّة المؤمن الذي لديه علمٌ من الكتاب والّذي أحضر عرش بلقيس إلى سليمان ﵇، ﴿قَالَ ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ﴾ [النمل: ٤٠].

والخلاصة: إنّ الله أعطى الأنبياء والأئمّة القدرات التّكوينيّة التي يحتاجونها في نبوّتهم وفي إمامتهم وفي حدود الوسائل التي يمكن أن يستخدموها، فيتصرّفون في الأشياء في هذه الدّائرة، أو تتحرّك الأشياء معهم في هذه الدّائرة.

وإذا كان القائلون بالولاية التكوينيّة يريدون هذا المعنى، فهذا ما يؤمن به كلّ المسلمين؛ لأنّه يدخل في نطاق المعجزة أو

الكرامة، وهي موضع تسالم من المسلمين قاطبةً؛ بل ويتبنّاها غير المسلمين أيضاً؛ مع ملاحظة أنّه حتى في موارد المعجزة، لا دليل على أنّ النبيّ نفسه أعطي القدرة على الخلق أو الإحياء أو ما إلى ذلك، وإنما جرى ذلك بقدرة الله تعالى. ولهذا فإنّنا نستبعد أن يكون هذا هو مراد القائلين بالولاية التكوينيّة؛ بل هو خلاف صريح كلماتهم.

كما أنّنا نستبعد أن يكون مرادهم بولاية التّكوين استجابة الدّعاء، بمعنى أنّ الأنبياء والأئمّة ﷺ يدعون الله سبحانه ليحقّق لهم بعض الخوارق، والله سبحانه يستجيب دعاءهم؛ لأنّهم في موقع القرب من الله، ولا يطلبون إلاّ ما فيه المصلحة، فهذا المعنى - أيضاً - لا ينكره مسلم، ولا يُظنّ أنّه مراد القائلين بالولاية التّكوينيّة.

ويبقى الاحتمال الخامس؛ وهو أن يقال: إنّ الله جعل لهم الولاية على الكون، بمعنى أنّ زمام أمر العالم التّكويني بأيديهم، ولهم السّلطة التامّة على جميع الكائنات بالتصرّف فيها كيفما شاؤوا إعداماً وإيجاداً، ولهم أن ينقلوا الشّمس من المشرق إلى المغرب وأن يزيلوا الجبال...

إلا أنّ هذا ما لم يقم عليه دليل؛ بل القرآن دليل على خلافه، كما سيتّضح فيما يأتي. ولذلك نحن لا نقول بالولاية التكوينيّة بهذا المعنى، لا لأنّه لا دليل عليها فقط؛ بل لأنّ الدّليل على خلافها. ولو أنّنا استبعدنا - فرضاً - أن يكون هذا الاحتمال هو مراد القائلين بالولاية التكوينيّة، فلربّما يحصل حينئذٍ الصّلح بين المنكرين والمثبتين؛ لأنّ نظر المنكرين يكون إلى الولاية بالمعنى الذي يؤدّي إلى التّفويض أو ما يقرب من التّفويض، ونظر

المثبتين إلى الولاية بنحو المعجزة والكرامة وما إلى ذلك، إلاّ أن القائلين بالولاية التّكوينيّة يتبنّون مضمون الاحتمال الخامس، الأمر الذي يؤكّد أنّ الاختلاف حقيقيّ وليس لفظيّاً.

موقع الولاية التكوينيّة في المعتقد الإسلاميّ

إنّ الولاية التّكوينيّة ليست من المعتقدات الأساسيّة لدى الشّيعة الإماميّة، ولا هي من أصول الإيمان وأركانه، وإنّما هي من الفروع الاعتقاديّة النظريّة التي تخضع للدّليل والبرهان نفياً وإثباتاً. وانطلاقاً من ذلك، لا يضرّ عدم الاعتقاد بها في إسلام الشّخص وصحّة معتقده، ولم يدّع أحدٌ من العلماء، ومنهم القائلون بالولاية التكوينيّة، أنها من أصول المذهب أو ضروريّاته، ولا يوجد إجماعٌ[1] لدى علمائنا على ضرورة الاعتقاد

(١) وهذا ما اعترف به الإمام الخميني (رحمه الله)، رغم=

بها، أو على تبنّيها، ولا سيّما مع ملاحظة أنّ

= أنّه من القائلين بالولاية التكوينيّة، إذ أفاد أنّ الذي يظهر من العلماء أنّهم (جعلوا الكرامات والمعجزات من قبيل استجابة الدّعاء، وأنّ الحقّ سبحانه هو الفاعل لكلّ هذه الأمور) (الأربعون حديثاً، ص ٦٠٢، طبعة دار التعارف بيروت الطّبعة السابعة ٢٠٠٣). ومن الواضح أنّ هذا يشكل رفضاً لأساس الولاية التكوينيّة، وقد أصرّ الشيخ محمد جواد مغنيّة على عدم كون الولاية التكوينية من ضرورات المذهب، وأنه لا دليل عليها، إذ قال ـ رداً على الذين قالوا إنّ الله خصّ الأئمة ﷺ بولاية التكوين على الأشياء ـ: (كلّ شيء ممكن بإذن الله، حتى إطباق السماء على الأرض بكلمة يقولها عباده تعالى، ولكنّ العبرة بالوقوع لا بالإمكان، وبالإثبات لا بالثبوت، وليس من شكّ أنّ طريق الإثبات هنا منحصر بالدليل القطعي متناً وسنداً، فأين هو؟ وعلى فرض قيام هذا النص عند البعض، فهو حجّة عليه وحده لا على غيره؛ لأنّ وجوب الإيمان بولاية التكوين ليس من ضروريات الدين ولا المذهب...). (راجع فلسفات إسلامية، ص ١٦٤). وهناك علماء آخرون لم تثبت لديهم الولاية التكوينيّة.

مصطلح الولاية التّكوينيّة هو مصطلح حادث، ولا نجد له عيناً ولا أثراً في كلمات المتقدّمين من علمائنا، فضلاً عن النّصوص والرّوايات. ولهذا، تكون المسألة خاضعةً للدّليل العلميّ، وينبغي التّعامل معها على هذا الأساس، بعيداً عن الأساليب العاطفيّة أو اللّغة التّشهيريّة التي لا موقع لها ولا محلّ في البحث العلمي الرّصين.

في إمكان الولاية التكوينيّة ووجه الحاجة إليها

لعلّ من المهمّ لنا أن نتوقّف عند نقطتين أساسيّتين:

النّقطة الأولى: هي في البحث عن مدى إمكان تقبّل العقل ـ بمرتكزاته المتعلّقة بالخلق والخالق وصفاته ـ لفكرة الولاية التّكوينيّة؛ لأنّ حُكم العقل بالاستحالة كافٍ في إخراج المسألة من دائرة البحث عن الدّليل، أو الجانب الإثباتيّ ـ كما يعبّر علماء الأصول ـ، وعندئذٍ، لا بدّ من عمليّة توجيه لما يُمكن أن يلوح منه ثبوت مثل هذه الفكرة المنفيّة بحكم العقل؛ لأنّ الدّليل لا يُمكن أن يصطدم

بالعقل القطعيّ. وهذا نظير ما نقوم به تجاه بعض الأدلّة التي يظهر منها التّجسيم للذّات الإلهيّة؛ إذ لّما حكم العقل باستحالة أن يكون الله تعالى جسماً كالأجسام، عمدنا إلى تأويل الآيات الدالّة على الجسميّة، كقوله تعالى: ﴿يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾ [الفتح: ١٠]، أو قوله تعالى: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ﴾ [القصص: ٨٨]، حيث نقول إنّ الآية تدلّ على السّلطة والعلوّ، والثّانية على الذّات، مع كون أمثال تلك التّعابير مقبولةً في اللّغة واستعمالاتها المجازيّة.

النّقطة الثّانية: أنّه إذا حكم العقل بالإمكان الذاتيّ لهذه الفكرة، فإنّه لا بدّ من استكمال طريق البحث لتحديد وجه الحاجة أو المبرّر لجعل الولاية للأنبياء والرّسل، فهل هناك ما يفرض ذلك؟ ثم نصل بعد ذلك إلى الحديث عن الجانب الإثباتي؛ لأنّه لا يكفي

أن تكون الفكرة ممكنةً عقلاً لتكون واقعةً فعلاً. وأمّا مجرّد الإمكان العقليّ، فإنّه لا يسمح بإدخال المرء الفكرة ـ ثبوتاً ـ كجزء من معتقداته، وكذلك الأمر إذا فُقِدَ كلٌّ من دليل الإثبات ودليل النّفي؛ لأنّ الاعتقاد لا بدّ له من دليل، كما قال تعالى: ﴿قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [البقرة: ١١١].

جانب الإمكان الذاتي:

لا إشكال في إمكان أن يجعل الله تعالى ـ من حيثُ المبدأ ـ لأيّ من عباده، أو سائر مخلوقاته، هذه القدرة على التصرّف في شؤون الكون، كما أنّ بإمكانه أن يحدّدها بحدود معيّنة؛ لأنّ الله القادر على الوجود كلّه والكون كلّه، يملك ـ في مضمون ألوهيّته المطلقة ـ أن يمكّن بعض خلقه من بعض مواقع القدرة ووسائلها؛ فهو الّذي جعل لهم

القــدرة في دائــرة إنســانيّتهم في أوضــاعهم الخاصّــة والعامّــة، مــن خــلال مــا أوكــل الله إليهم من مهمّات تتّصل بالمسؤوليّات الملقـاة على عواتقهم، والحوافز المرتبطـة بتطلّعـاتهم وحاجاتهم، ولا بدّ من أن يكـون لـه القـدرة على توسيع هذه الإمكانات لأكثر من مهمّـة جديدة في الكون. ويبقى الله مسيطراً ومهيمناً على الأمر كلّه؛ فلـه أن يبقيهـا لهـم في مـدى حكمته، وله أن يسلبها عنهم في مدى قدرته، ولـيس في ذلـك أيّـة منافـاة أو انحـراف عـن العقيدة التّوحيديّة التي ترتكز علـى أنّ الخلـق والأمر له في كلّ شيء، فلا يملك أحدٌ من أيّ شـيء إلاّ مـا ملّكـه الله؛ لأنّ القضـيّة قضـيّة عطاء إلهـيّ يتحـرّك في الـدّائرة الخاصّـة الـتي يحدّدها الله لعباده مـن خـلال إرادتـه المطلقـة التي لا يعجزها شيء.

المبرّر أو جانب الحاجة أو الضّرورة لهذا الجعل:

وهنا يبرز السّؤال: لماذا يجعل الله لهم هذه الولاية التكوينيّة؟ هل هناك مهمّة تتوقّف على ذلك، بحيث تكون المسألة هي أن يملكوا القدرة الفعليّة الشخصيّة، بحيث يصدر الفعل عنهم فلا يتحقّق الهدف إلا من خلال ذلك، أم هي قضيّة تشريف إلهيّ لهم، حيث يمنحهم هذا الموقع الكبير الّذي لا يملكه أحد في الوجود غيرهم؟

هذه علامات استفهامٍ تطوف في الذّهن، فلا نجد لها جواباً إيجابيّاً يؤكّد النّظريّة، فنحن نعلم أنّ دور الأنبياء هو دور تبشيرٍ وإنذارٍ وتبليغ؛ وإذا كان لهم دورٌ تنفيذيٌّ، فإنّهم يتحرّكون فيه من خلال الوسائل العاديّة المطروحة بين أيديهم في الحالات العاديّة، فإذا

جاء التحدّي الكبير الذي يحوّل الموقف إلى خطر كبير على الرّسالة والرّسول، بحيث كانت الوسائل العاديّة ذات مردودٍ سلبيٍّ على الموقف والموقع؛ لأنّها تجعل القضيّة في حال الضّعف الشّديد، فإنّ المعجزة عندئذٍ تتحرّك لتحفظ توازن الرّسالة في موقع الرّسول، وتصدم واقع الكافرين بالصّدمة القويّة القاهرة التي تردّ كيدهم، وتهدّم كيانهم، وتؤدّي بهم إلى الضّعف والهزيمة، كما في طوفان نوح ﵇، ونار إبراهيم ﵇، وعصا موسى ﵇، أو يده البيضاء وفلق البحر له، وإحياء الموتى وإبراء الأكمه والأبرص لدى عيسى ﵇، وقرآن محمّد ﷺ، وتنتهي المسألة عند هذا الحدّ، فتكون بمثابة قضيّة في واقعة، وتعود الرّسالة إلى مجراها الطّبيعيّ، ويعود الرّسول إلى الوسائل العاديّة، ويتحرّك الصّراع من جديد، ليعيش النبيّ هنا وهناك

أكثر من مشكلة وهمّ وبلاء؛ فيتحمّل الألم القاسي، ويواجه التحدّيات الصّعبة كأيّ إنسان آخر، من دون أن يبادر إلى أيّة وسيلةٍ غير عاديّة للتخلّص من ذلك كلّه.

لذا، فإنّنا لا نجد أيّة ضرورة أو حاجةٍ تفرض إعطاء الولاية التّكوينيّة المطلقة لهم إلا بالمقدار الّذي تحتاجه الرّسالة في أصعب أوقات التحدّي، فتأتي المعجزة لإنقاذ الموقف؛ مع احتمال أنّها ليست من قدرتهم، ولكنّها قدرة الله بصورة مباشرة.

أمّا التّشريف، فإنّه لا يتمثّل في إعطاء القدرة من دون قضيّة، أو في توسيع السّلطة من دون مسؤوليّة، والله يشرّف أنبياءه من خلال رفع درجتهم عنده من خلال تقريبهم إليه ومحبّته لهم وعلوّ مقامهم في الآخرة، أمّا

الدّنيا، فلا قيمة لها عنده ولا عندهم[١]، ولذلك لم يجعلها أجراً لأوليائه؛ بل ربما أتاح الفرصة الكبرى فيها لأعدائه.

ثم إنّ لنا أن نتساءل في المقام: ما معنى

---

(١) كما تشهد بذلك سيرتهم وأقوالهم، فقد روي عن أمير المؤمنين ﷺ قوله: «ولو أراد الله سبحانه بأنبيائه حيث بعثهم أن يفتح لهم كنوز الذّهبان ومعادن العقيان ومغارس الجنان، وأن يحشر معهم طيور السماء ووحوش الأرض لفعل، ولو فعل لسقط البلاء، وبطل الجزاء، واضمحلّت الأنباء، ولما وجب للقابلين أجور المبتلين، ولا استحقّ المؤمنون ثواب المحسنين، ولا لزمت الأسماء معانيها، ولكنّ الله سبحانه جعل رسله أولي قوّة في عزائمهم، وضعفةً فيما ترى الأعين من حالاتهم، مع قناعة تملأ القلوب والعيون غنى، وخصاصة تملأ الأبصار والأسماع أذى. ولو كان الأنبياء أهل قوّة لا ترام، وعزّة لا تضام، وملك تمتدّ نحوه أعناق الرّجال، وتشد إليه عقد الرّحال، لكان ذلك أهون على الخلق في الاعتبار، وأبعد لهم في الاستكبار، ولآمنوا عن رهبة قاهرة لهم أو رغبة مائلة بهم» (نهج البلاغة، ج ٢، ص ١٤٥).

هذه الولاية التي لا أثر لها في حياتهم من قريب أو من بعيد، ولا دخل لها في حماية أنفسهم، فلم يستعملوها في إذهاب الخطر عنهم أو المحيطين بهم، ولم يتحرّكوا بها في الانتصار لرسالاتهم، وذلك من خلال قراءة تاريخهم الصّحيح كلّه؟!

أدلّة الولاية التّكوينيّة ومناقشتها

الولاية التّكوينيّة وعقيدة التوحيد:

وقبل أن نعرض للبحث الاستدلاليّ والوجوه التي يمكن أن تذكر لإثبات الولاية التكوينيّة، لا بدّ لنا من أن نشير إلى أنّ الأصل في المقام هو مع النافين للولاية التّكوينيّة، وأقصد بالأصل: كلّ ما دلّ ـ من أدلّة عقليّة ونقليّة ـ على أنّ الله سبحانه وتعالى هو الذي خلق الكون ولم يترك فيه فراغاً؛ بل كلّ شيء قدّره تقديراً، وخلق في داخله خصائصه وعناصره، فليس فيه خلل أو نقص. ولذلك، فإنّ نفي الولاية التّكوينيّة

لغير الله سبحانه، ينسجم تمام الانسجام مع عقيدة التّوحيد؛ لأنّ كلّ ما دلّ على التّوحيد في الخالقيّة، يدلّ على أنّ الولاية التكوينيّة حقّ لله وحده، فهو وليّ كلّ نعمة، وصاحب كلّ حسنة، وهو الرزّاق ذو القوّة المتين، وهو الذي يحيي ويميت، وهو القاهر فوق عباده، المهيمن على الأمر كلّه، والكلّ عباده المكرّمون، الذين لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون. أمّا المعاجز التي يأتي بها الأنبياء ﵈، فهي جزء من النّظام الإلهيّ، فالله سبحانه وتعالى هو الّذي أعطى عصا موسى ﵇ القوّة، وأعطاها حركة الحياة في داخلها، وهو الذي حوّل اليد السّمراء إلى يدٍ بيضاء، وهو الّذي جعل النار برداً وسلاماً على النبي إبراهيم ﵇، وهو الذي فجّر الأرض عيوناً في طوفان نوح ﵇، وهو الذي أعطى الرّوح لما صنعه النبيّ عيسى ﵇، وكان دور عيسى ﵇

أن يصنع من الطّين كهيئة الطير وينفخ فيه، فيجعل الله تعالى في النّفخة سرّ الحياة، كما جعل الله تعالى في نفخة الملك في السيّدة مريم عليها السلام سرّ الحياة، حيث ولد النبيّ عيسى عليه السلام.

مرجعيّة القرآن:

ويهمّنا هنا التّركيز على ما جاء في القرآن الكريم؛ لأنّنا نعتقد أنّ للقرآن الدّور الأساس في تحديد طبيعة التصوّر الذي أراد الله تعالى للإنسان أن يأخذ به في نظرته إلى الأنبياء ودورهم وحركتهم في الحياة، وكذلك بالنّسبة إلى الأولياء بالأولويّة. ولهذا التصوّر دوره في تحديد طريقة تعاطينا مع ما ورد من رواياتٍ تتحدّث عن بعض الخوارق، أو تنسب ذلك النّوع من الولاية إلى الأنبياء أو الأولياء.

ولا بدّ من الإشارة هنا إلى أنّ القرآن عندما يكون دليلاً على نفي الولاية التّكوينيّة،

فإنّه لا يُمكن بعد ذلك قبول ما يُنافي القرآن ممّا ورد في إطار السُنّة ويدلّ على ثبوت الولاية؛ لأنّ «**ما خالف كتاب الله فهو زخرف**»[1] لا بدّ من طرحه أو تأويله - إذا كان التّأويل ينسجم مع طبيعة اللّغة العربيّة في تعبيراتها واستعمالاتها -.

روايات الولاية التّكوينيّة:

هذا، مع العلم أنّ الرّوايات في هذا المجال هي في معظمها ضعيفة السّند، كما أنّها متعارضة ويخالف بعضها بعضاً، ما يعني ضرورة إخضاع الرّوايات نفسها لمنهج البحث العلميّ في حال التّعارض، وهو يقضي:

أوّلاً: بضرورة عرضها على القرآن

---

(١) كما ورد في أكثر من حديث عن أئمّة أهل البيت عليهم السلام.
راجع على سبيل المثال: الكافي، ج ١، ص ٦٩، باب الأخذ بالسنّة وشواهد الكتاب.

الكريم - كما أسلفنا - وطرح ما يخالفه منها، والّذي يخالف القرآن - في رأينا - هو الروايات المثبتة للولاية التّكوينيّة.

ثانياً: مع صرف النّظر عن مسألة العرض على الكتاب، فإنّ التعارض بين الرّوايات يوجب سقوطها وعدم حصول الوثوق بها، كما هو محقّق في محلّه.

ثالثاً: إنّ ثمة ملاحظةً أساسيّةً في المقام، وهي أنّه لا يمكن الاعتماد في مثل هذه المسألة الاعتقاديّة على الأخبار ما لم تكن متواترةً أو مفيدةً للاطمئنان على أقلّ تقدير، والرّوايات التي قد تذكر لإثبات الولاية التّكوينيّة هي أخبار آحاد، ولا تتوفّر فيها شروط التّواتر، ولا يحصل الاطمئنان بمضمونها، ولا سيّما بملاحظة وجود معارض لها، واشتمال بعضها على مضامين غريبة.

إن قلت: إنّ هناك الكثير من الأخبار التي أوردها العلماء في كتبهم حول حصول بعض الخوارق على يد الأنبياء أو الأئمّة من أهل البيت ﷺ، وهذه الرّوايات بضمّ بعضها إلى بعض، تبلغ حدّ التواتر المعنوي، وعلى أقلّ تقدير يحصل الاطمئنان بمضمونها.

قلت: إنّ الروايات المشار إليها، وبصرف النّظر عن أسانيدها، تتضمّن في معظمها حصول معجزة لهذا النبيّ ﷺ أو كرامة لذاك الوليّ، والمعاجز والكرامات لا علاقة لها بفكرة الولاية التّكوينيّة ـ كما أسلفنا ـ.

القرآن والولاية التّكوينية:

وللتعرّض لما ورد في القرآن الكريم، ينبغي لنا التوقّف عند ثلاثة أنواع من الأدلّة:

أوّلاً: ما اعتبر دليلاً على ثبوتها في نطاق المعاجز الخارقة في حياة الأنبياء.

ثانياً: ما يتعرّض لشخصيّة الأنبياء أو الأولياء في بعض المواقف، أو يحدّد أدوارهم على نحو القاعدة، أو من خلال بعض العناوين التي يُمكن الانتقال منها لإثبات الولاية التكوينيّة للأنبياء أو الأئمّة بالأولويّة.

ثالثاً: ما ورد في نطاق علم الغيب الّذي قد يظهر الله عليه بعض أنبيائه أو أوليائه. وفيما يلي تفصيل الكلام في هذه الأدلة.

١ - المعاجز وإثبات الولاية التكوينيّة:

إنّ ما يمكن أن يذكر على أنّه من مصاديق الولاية التكوينيّة للأنبياء، في نطاق المعاجز الخارقة، هو عدّة آيات قرآنيّة.

ونلتقي في البداية بما نزل من الوحي في قصّة النبيّ نوح ﵇، كما جاء في قوله تعالى: ﴿ ۞ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدُجِرَ * فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانتَصِرْ * فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ

ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٍ مُّنْهَمِرٍ * وَفَجَّرْنَا ٱلْأَرْضَ عُيُونًا فَٱلْتَقَى ٱلْمَآءُ عَلَىٰٓ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ﴾ [القمر: ٩ — ١٢]. إلاّ أنّ هذه الآيات واضحة الدّلالة على أنّ المسألة كانت دعاء نوح ﵇ واستجابة ربّه له بإغراق الكافرين بالطّوفان، من دون أن يكون لنوح ﵇ أيّ دور عمليّ فيه.

فإذا انتقلنا إلى إبراهيم ﵇، نجد قوله تعالى: ﴿ قَالُواْ حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓاْ ءَالِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ * قُلْنَا يَٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ * وَأَرَادُواْ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَخْسَرِينَ ﴾ [الأنبياء: ٦٨ -٧٠]، وهذه الآيات، كما لا يخفى، لا علاقة لها بالولاية التّكوينيّة، وإنما هو اللّطف الإلهيّ بنبيّه إذ أرادوا إحراقه، فأنجاه الله من النّار فحوّلها إلى عنصر باردٍ.

فإذا انتقلنا إلى الطّلب الذي قدّمه النبيّ إبراهيم ﵇ إلى ربّه أن يريه كيف يحيي الموتى،

وذلك قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰۖ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِنۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِيۖ قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ ٱلطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ ٱجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ٱدْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًاۚ وَٱعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٦٠]، فإنّنا نرى أنّ طلب إبراهيم عليه السلام هو كيف يحيي الله الموتى، وأمّا دور إبراهيم في المسألة، فهو أن يأتي بالطّيور ويذبحها ويقسّمها إلى أجزاء، ثم يدعوهنّ لتأتينه سعياً، لنشاهد الصّورة الواضحة في كيفيّة إحياء الله الموتى، فإنّ الله هو الّذي أحياها بطريقةٍ مباشرة، ولم يكن لإبراهيم دورٌ في ذلك.

ونصل إلى موسى عليه السلام الّذي تمثّلت المعجزة لديه أوّلاً في مجلس فرعون الّذي قال، كما جاء في قوله تعالى: ﴿قَالَ إِن كُنتَ جِئْتَ بِـَٔايَةٍ فَأْتِ بِهَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ * فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ * وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِيَ بَيْضَآءُ

لِلنَّظِرِينَ ﴾ [الأعراف:١٠٦ - ١٠٨]، ثم في ذروة التحدّي الذي واجهه في صراعه مع السّحرة، وذلك قوله تعالى: ﴿ ۞ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ ۖ فَإِذَا هِىَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴾ [الأعراف: ١١٧]. ونحن لا نرى أيّ جهد لموسى في الموضوع، فإنّه كان يعيش دور المنفعل الّذي يحوّل الله يده السّمراء إلى بيضاء، ويحوّل العصا التي يمسكها إلى ثعبان، وكان خاضعاً للخوف من تجربة السّحرة، وللحَيْرة في ما يمكن أن يقوموا به ردّاً للتّحدّي؛ لأنّه كان ينتظر تدخّل الله غير العاديّ في المسألة، وذلك هو قوله تعالى: ﴿ فَأَوْجَسَ فِى نَفْسِهِۦ خِيفَةً مُّوسَىٰ * قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْأَعْلَىٰ ﴾ [طه: ٦٧ - ٦٨].

ثم نلتقي بالنبيّ سليمان عليه السلام الذي قال: ﴿ قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَهَبْ لِى مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِى لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِىٓ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ﴾ [ص: ٣٥]، واستجاب الله دعاءه: ﴿ فَسَخَّرْنَا لَهُ ٱلرِّيحَ تَجْرِى بِأَمْرِهِۦ رُخَآءً حَيْثُ أَصَابَ *

وَٱلشَّيَٰطِينَ كُلَّ بَنَّآءٖ وَغَوَّاصٖ * وَءَاخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي ٱلۡأَصۡفَادِ * هَٰذَا عَطَآؤُنَا فَٱمۡنُنۡ أَوۡ أَمۡسِكۡ بِغَيۡرِ حِسَابٖ ﴾ [ص: ٣٦ - ٣٩]. فليس في القصّة إلا دعاء واستجابة ربانيّة أعطته ما يريد من دون أن يكون له أيّ دور عمليّ أو قدرة واقعيّة في تحقيق ذلك.

ونصل ـ بعد ذلك ـ إلى عيسى ﷺ الذي قد يُدّعى ظهور الآية في صدور المعجزة عنه من خلال جهده الذّاتي الذي اكتسبه بإذن الله، وهذا ما جاء في الآية الكريمة: ﴿أَنِّيٓ أَخۡلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيۡـَٔةِ ٱلطَّيۡرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيۡرَۢا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۖ وَأُبۡرِئُ ٱلۡأَكۡمَهَ وَٱلۡأَبۡرَصَ وَأُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۖ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأۡكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمۡۚ ﴾ [آل عمران: ٤٩]، فنلاحظ أنّه ينسب الخلق إلى نفسه، كما ينسب عمليّة إبراء الأكمه والأبرص وإحياء الموتى والإخبار بالغيب في أوضاع النّاس الخاصّة إلى جهده وفعله الشّخصيّ، ولكن بإذن الله.

وربّما يجد القائلون بالولاية التكوينيّة الحجّة الدّامغة في هذه الآية الكريمة. ولكنّنا نستوحي من كلمة: ﴿بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ في هذه الآية: أو كلمة: ﴿بِإِذْنِي﴾ [المائدة: ١١٠]، أنّ دور عيسى كان دور الآلة التي تتحرّك لتصنع شيئاً كهيئة الطّير وتنفخ فيه، فيبعث الله فيه الحياة. وهكذا يضع يده على الأكمه والأبرص وعلى الميت، فتحدث العافية في الأوّلَيْن، وتنطلق الحياة في الثّالث من خلال إرادة الله.

من هنا، فإنّ كلمة ﴿بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ لا تعني معناها الحرفيّ اللّغويّ؛ بل تعني معنى القوّة التي تنطلق لتحقّق النّتائج الحاسمة التي لا يملك عيسى عليه السلام أيّة طاقة خاصّة به فيها. هذا مع ملاحظة أخرى في المقام، وهي أنّ إحياء الموتى هو من المعجزات التي مكّن الله عيسى عليه السلام منها تأكيداً لنبوّته، والمعجزات لا ينكرها مسلم، لكنّها لا تثبت الولاية خارج نطاق المعجزة.

إلى هنا، لا يظهر من أدلّة المعاجز الثّابتة للأنبياء ثبوت الولاية التكوينيّة؛ بل هي مرتبطة بإرادة الله تعالى التي تتمثّل بإجابة دعاء، أو بردّ تحدٍّ حاسمٍ موجّه ضدّ الرّسالة.

هذا، مع الإشارة إلى نقطة مهمّة، وهي أنّ المعجزة ليست لازمةً للنبوّة؛ بل الأساس هو مجيء النبيّ بالعقل والمنطق والموعظة، حتّى إذا وقف النبيّ في موقف التحدّي الذي لا يحتمل ترك الأمور للوسائل العاديّة، انطلقت المعجزة لتحسم الموقف لصالح الرّسالة.

٢ - علم الكتاب:

وربّما يتمسّك البعض لإثبات الولاية التكوينيّة بما ورد في سياق قصّة سليمان ﷺ عن ذلك الّذي عنده «علمٌ من الكتاب» الّذي أعلن قدرته على الإتيان بعرش ملكة سبأ قبل أن يرتدّ إليه طرفه، وذلك قوله تعالى:

﴿قَالَ ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ﴾ [النّمل: ٤٠]، بتقريب أنّ سبب القدرة هو العلم من الكتاب، والأنبياء والأئمّة يملكون علم الكتاب، فلهم الولاية بطريقٍ أولى.

ولكنّنا نلاحظ على هذا الاستدلال:

أوّلاً: أنّنا لا نجد في هذا دليلاً على الولاية التكوينيّة؛ إذ ليس من الواضح ما هو الكتاب، حتّى يعمّم الموضوع إلى من عنده علم الكتاب بالأولويّة.

ثانياً: أنّه من غير المعلوم أنّ قدرته على الإتيان بعرشها ناشئ من علمه ذاك؛ إذ قد يقال إنّ قوله: «عنده علمٌ من الكتاب» كقوله: «عفريت من الجنّ»، فيكون من باب الإشارة إلى الشّخص بالوصف، بحيث لا يكون الوصف دالاً على أنّ قدرته ناشئة من خلاله؛ بل ناشئة من سببٍ آخر.

ثالثاً: ثم لو قلنا بدلالة ذلك على الولاية التكوينيّة، فلازمه إثباتها للعفريت من الجنّ أيضاً؛ لأنّ الفارق بينهما هو في الزّمن، حيث العفريت يأتيه به قبل أن يقوم من مقامه، وذاك قبل أن يرتدّ إليه طرفه!

رابعاً: ثم بالإمكان إثارة السّؤال: لماذا يستعين سليمان عليه السلام بغيره لذلك، مع أنّه نبيّ، والمفروض أنّه يعلم الكتاب كلّه، وبالتّالي له الولاية التّكوينيّة حسب المدّعى؟! ويتصاعد التّساؤل عندما ندرس الآيات التي تتحدّث عن أنّ هذا الملك الواسع لسليمان عليه السلام، كان بطلبه ذلك من الله تعالى، حيث حكى عنه تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ ٱغۡفِرۡ لِي وَهَبۡ لِي مُلۡكٗا لَّا يَنۢبَغِي لِأَحَدٖ مِّنۢ بَعۡدِيٓۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡوَهَّابُ﴾ [ص: ٣٥]. وقد استجاب له الله، وسخّر له الرّيح والجنّ والطّير وما إلى ذلك، ما يوحي بأنّ المسألة ليست عامّةً لكلّ الأنبياء، ولا أنها قضيّة

ولاية لازمة للنبوّة، وإنما هي منّة خاصّة من الله امتنّ بها على سليمان ﷺ من خلال استجابة الله دعاءه.

٣ - علم الغيب:

وربما حاول البعض إثبات الولاية التكوينيّة من خلال علم المعصوم بالغيب، فإنّ العالم بأسرار الكائنات له القدرة على التصرّف فيها، أو على الأقلّ إنّ ذلك يمكّنه من تفادي بعض سلبيّاتها وتأثيراتها التّكوينيّة.

إلا أنّنا نلاحظ على ذلك، أنّ العلم بالمغيّبات ـ مضافاً إلى أنّه لا علاقة له بالولاية التّكوينيّة، ولا ملازمة بين الأمرين، فربما يعلم الإنسان أشياء كثيرةً دون أن يكون له قدرة على تغييرها، كالطّبيب الذي يعلم بالأمراض ولا وسيلة له إلى معالجتها ـ هو

من مختصّات الله سبحانه التي لا يشاركه فيها أحد إلاّ في حدود معيّنة يُطلع فيها الله بعض أوليائه ورسله على بعض الغيبيّات على سبيل الإعجاز أو الكرامة.

ولعلّ أبلغ آيةٍ دالّةٍ على نفي علم النبيّ بالغيب، هي قوله تعالى: ﴿وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ لَٱسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِىَ ٱلسُّوٓءُ ۚ﴾ [الأعراف: ١٨٨]، ما يوحي بأنّ النبيّ لا يملك علم الغيب الذي يقيه من مكاره الدّهر، من مرضٍ أو بلاءٍ ونحوهما، أو الذي يطلعه على مواقع الخير.

وقد تكرّر في القرآن الحديث عن هذه المسألة في نفي النبيّ علمه بالغيب، كما في قوله تعالى: ﴿قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ إِنِّى مَلَكٌ ۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ ۚ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ ۚ أَفَلَا

تَتَفَكَّرُونَ ﴾ [الأنعام: ٥٠] وقوله تعالى: ﴿ قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ ٱلرُّسُلِ وَمَآ أَدْرِى مَا يُفْعَلُ بِى وَلَا بِكُمْ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ ﴾ [الأحقاف: ٩] ﴿ ۞ وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ﴾ [الأنعام: ٥٩]، ما يوحي بأنّ الوسيلة الوحيدة التي يتعرّف فيها النبيّ بعض شؤون الغيب هو الوحي، سواء كان من غيب الماضي أو الحاضر أو المستقبل، كما جاء في قوله تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَٰمَهُمْ ﴾ [آل عمران: ٤٤]. وهذا ما تحدّث عنه القرآن في التّنبّؤ ببعض المغيّبات، كما في قوله تعالى: ﴿الٓمٓ * غُلِبَتِ ٱلرُّومُ * فِىٓ أَدْنَى ٱلْأَرْضِ وَهُم مِّنۢ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ *فِى بِضْعِ سِنِينَ ﴾ [الرّوم: ١-٤]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ ﴾ [القصص: ٨٥]، وقوله تعالى: ﴿لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ ﴾ [الفتح: ٢٧]، وغير ذلك ممّا تحدّثت عنه السّيرة.

وليس معنى ذلك أنّ النبيّ ليس في مستوى المعرفة الغيبيّة في ما يمكن أن يمنحه الله من ملكاته القدسيّة وفيوضاته الربّانيّة، ولكن قد لا تكون لذلك أيّة ضرورة في ما هي المهمّة الموكولة إليه التي يراد من خلالها تأكيد عنصر البشريّة فيه، بما لا يتنافى مع طبيعة رسالته، ولا يُعتبر مخالفاً لصفة الكمال العمليّ والرّوحيّ في ما ينبغي أن تتّصف به شخصيّته كنبيٍّ مرسل؛ لأنّ الكمال في هذا المجال من الأمور النّسبيّة في الدّائرة البشريّة من خلال القدرات الطّبيعية فيها، فلا بدّ من ثبوت أيّة صفة غير بشريّة من خلال النّصوص القطعيّة التي تثبت ذلك، لنؤمن بها في هذه الدّائرة الخاصّة.

وفي المقابل، فقد ورد في بعض الآيات الحديث عن أنّ الله يظهر رسله على الغيب، وذلك في قوله تعالى: ﴿عَـٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ

عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا * إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُۥ يَسْلُكُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ رَصَدًا * لِّيَعْلَمَ أَن قَدْ أَبْلَغُوا۟ رِسَٰلَٰتِ رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَىْءٍ عَدَدًۢا﴾ [الجنّ: ٢٦- ٢٨]، فقد استند إليها القائلون بأنّ الله قد أعطى رسوله وأولياءه العلم بالغيب، إمّا بطريق الفعليّة الاستحضاريّة، وإمّا بطريق القوّة، بمعنى أنّه لو شاء أن يعلم لعلم. وذكروا أنّ ظاهر الاستثناء في قوله تعالى: ﴿فَإِنَّهُۥ يَسْلُكُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ رَصَدًا﴾، هو الإطلاق الّذي لم يتقيّد بشيء، ما يوحي بأنّ المسألة تشمل كلّ شيء يريد الرّسول أن يعلمه من الغيب، ويفسّرون ما ورد في كلامه تعالى من نفي علم الرّسول بالغيب، أنّه أريد به نفي الأصالة والاستقلال دون ما كان بتعليم الله ووحيه.

ولكنّنا نرجّح أنّ الآية لا تدلّ على إطلاع الله نبيَّه على علم الغيب بشكلٍ مطلق، وإنما هي

ناظرة إلى الوحي الّذي يوحي به إليه، والوحي من نبأ الغيب كما هو واضح، والشّاهد على ما نقول قوله تعالى: ﴿فَإِنَّهُۥ يَسۡلُكُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ رَصَدٗا﴾، فهذا المقطع من الآية يشير إلى نوعيّة الغيب الّذي يظهر الله عليه من ارتضى من رسله، فإنّ الرّصد، أو هذا الجوّ الملائكيّ الذي يحميه من الشّياطين، فيطردهم عنه ويعصمه من وساوسهم وتخاليطهم، يراد منه ضمان وصول الوحي إلى النّاس سالماً، من خلال حماية النبيّ ﷺ حتى يبلّغ ما أوحي به إليه. فليست الآية في مقام الحديث عن علم الرّسول بالغيب؛ بل عن حمايته بطريق الغيب؛ فكأنّه بداية كلام جديد في الحديث عن مهمّة الرّسل في إبلاغهم رسالات ربّهم واطّلاعه عليهم وحمايته لهم، وذلك على أسلوب الاستثناء المنقطع؛ لأنّ الاستثناء - على حسب ما يراه هؤلاء - يتنافى مع الأسلوب القرآنيّ الذي

يؤكّد نفي علم الأنبياء بالغيب، والّذي لم يكن وارداً على سبيل نفي الاستقلال - كما ذكر - بل على نفي الفعليّة بحسب الواقع الفعليّ الذي يعيشه الرّسول في حياته وفي مهمّته الرّساليّة.

وقد يلاحظ المتأمّل في القرآن، أنّ الآيات تؤكّد دائماً جانب الوحي كفارقٍ بين النّاس والنّبيّ، كما تثير مسألة عجزه الذّاتيّ عن القيام بكلّ الأمور الخارقة للعادة في غير النّطاق المحدود للمعجزة في طبيعتها القريبة من مواقع التحدّي الذي يجتذب ذلك، للمحافظة على شخصيّة الرّسالة وفاعليّتها في المجتمع. كما أنّ هناك نقطةً مهمّةً في سيرته، وهي أنّه لم يعهد عنه التحدّث بالمغيّبات في مجتمع المسلمين في ما يتعلّق بشؤونهم العامّة والخاصّة؛ لأنّ رسالته لم تحتج إلى ذلك، خلافاً لما أخبر به القرآن عن عيسى عليه السلام.

وخلاصة الفكرة: إنّ هناك فرقاً بين علم الغيب كمَلَكة تدخل في نطاق التّكوين الذاتي للنبيّ - في خصوصيّة نبوّته -؛ وهذا ما ينفيه الظّاهر القرآني، ولا سيّما ذاك المتّصل بأخبار الماضين، والّذي يمكن إدراجه تحت عنوان علم الغيب، حيث ثمّة إشارة واضحة في القرآن الكريم إلى أنّ أنباءه هي من وحي الله تعالى، وبين علم الغيب المتّصل ببعض موارد الحاجة إليه في موارد معيّنة، فيلهمه الله تعالى إيّاه إلهاماً، وهذا ما لا ينفيه النصّ القرآني.

روايات علم الغيب:

وفي ضوء ذلك، فإنّ ما ورد من روايات متنوّعة حول علم الأنبياء والأئمّة ﷺ بالغيب، وبصرف النّظر عن إسنادها وعن كونها متعارضةً فيما بينها، لا بدّ من أن تعرض على القرآن، ليردّ ما خالفه منها إليه،

بحيث ينسجم مع الأسلوب القرآنيّ البلاغي المعجز، بما يُبعدُ الجمع بينها وبين الظّاهر القرآنيّ عن التّعسّف والتكلّف في حمل اللّفظ على خلاف ظاهره؛ فإنّ التّأويل بما لا يتّفق مع القواعد البلاغيّة التعبيريّة في القرآن، سوف يؤدّي إلى العبث به وبآياته، بما يفسح في المجال للمحرّفين الذين يحمّلون القرآن ما لا ينسجم مع مفاهيمه الأصيلة.

أدلّة النّفي:

اتّضح مما سلف، أنّه ليس في الكتاب ما يدلّ على ثبوت الولاية التّكوينيّة للأنبياء والأولياء؛ بل ربّما نجد الدّليل على نفيها، من خلال الآيات التي تدلّ على أنّ النبيّ لا يملك شيئاً من ذلك كلّه، وأنّ مهمّته الأولى والأخيرة هي الرّسالة في حركتها في الإبلاغ والتّبشير والإنذار وهداية النّاس إلى سبل

السّلام في الطّريق إلى الله؛ بل إنّ القرآن يؤكّد وجـود عناصـر الضّـعف البشـريّ في ذات الرّسـول، ولكـن بالمسـتوى الّـذي لا ينـافي العصمة. وإليك بعض الآيات القرآنية النافية للولاية التكوينيّة:

١ – الرّسول البشر:

نقرأ في سورة الإسراء قوله تعالى: ﴿ وَقَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا * أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ ٱلْأَنْهَـٰرَ خِلَـٰلَهَا تَفْجِيرًا * أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِىَ بِٱللَّهِ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ قَبِيلًا * أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِى ٱلسَّمَآءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَـٰبًا نَّقْرَؤُهُۥ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّى هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا ﴾ [الإسراء: ٩٠ – ٩٣]. فنحن نلاحظ أنّ النبيّ ﷺ لم يتحدّث، من خلال ما ذكرته الآية، عن رفضه للمعجزات الاقتراحيّة

التي يوجّهها النّاس الكافرون إلى الأنبياء كوسيلةٍ للتحديّ والتّعجيز ممّا يرفضه الأنبياء؛ لأنّ مهمّة النبيّ ليست إشغال نفسه بتنفيذ هذه الطّلبات التي لا معنى لها بعد إقامة الحجّة عليهم من قِبَله؛ بل تحدّث عن أنّ ذلك لا يدخل في مهمّته الرّساليّة، كما أنّه لا يملك هذه القدرة باعتبار بشريّته التي تختزن في داخلها الضّعف البشريّ.

وإذا كان بعض النّاس يتحدّثون عن أنّ القائلين بالولاية التّكوينيّة يؤكّدون أنّ النبيّ لا يختزن في مضمون بشريّته أيّة قدرة ذاتيّة؛ بل إنّ الله هو الّذي يمنحه ذلك، فهو لا يمتلك ذلك ذاتيّاً، ولكنّه يمتلكه من خلال تمليك الله له ذلك، والآية تنفي الأوّل وليس الثّاني؛ فإنّنا نجيب بأنّ النبيّ ﷺ إنّما كان يتحدّث عن الواقع الفعليّ الذي تمثّله طاقته في دوره، ونفي الفعليّة معناه أنّ الله لم يملّكه ذلك.

أجل، إنّ الله أعطاه الطاقة المرتبطة بحركيّة الرّسالة في النّاس، ولم يعطه الطاقة - حتّى بإذنه - لمثل هذه الطّلبات الصّعبة.

٢ - إنما الآيات عند الله:

ومن الآيات القرآنيّة الدالّة على عدم امتلاك النبيّ طاقةً أو قدرةً تمكّنه من التصرّف في الكائنات: قوله تعالى في أكثر من آية: ﴿إِنَّمَا ٱلْءَايَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ﴾، فإنّه ظاهر في أنّ أمر الآيات والمعاجز هو بيد الله، وأنّ النبي ﷺ لا يملك من أمرها شيئاً، قال سبحانه: ﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَٰتٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۖ قُلْ إِنَّمَا ٱلْءَايَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ [العنكبوت: ٥٠].

وقد نستوحي من بعض الآيات المتقدّمة ومن غيرها، أنّ المعجزة الوحيدة للنبيّ محمّد ﷺ هي القرآن الكريم، وذلك في مقابل ما يُنقل عن قيام النبيّ بمعجزةٍ أخرى، كانشقاق القمر،

بحيث لو كانت منه، لكانت أكثر استجابةً للتحدّي الذي واجهه النبيّ ﷺ من قِبل المشركين، كما أنّها أكثر صعوبةً من هذه الاقتراحات.

وقد تحدّث المشركون عن هذه المسألة - وهي عدم قيام النبيّ محمّد ﷺ بالمعجزة المماثلة لما قام به الأنبياء السّابقون - وذلك في قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يُنَزِّلَ ءَايَةً وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الأنعام: ٣٧]، وقوله تعالى: ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦٓ ۗ إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرٌ ۖ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾ [الرّعد: ٧]. فقد يظهر من هذه الآية، أنّ إنزال الآيات ليس أمراً ضروريّاً للنبوّة إلاّ في حالات التحدّي الكبير الذي يهدّد حركتها في ساحة الصّراع والمواجهة، ولذلك لم ينزل الله على النبيّ آية؛ لأنّ التحدّي لم يصل إلى هذه المرتبة الحاسمة. وفي قوله

تعالى دلالة على ذلك أيضاً: ﴿وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرْسِلَ بِٱلْـَٔايَـٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلْأَوَّلُونَ ۚ وَءَاتَيْنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا۟ بِهَا ۚ وَمَا نُرْسِلُ بِٱلْـَٔايَـٰتِ إِلَّا تَخْوِيفًا﴾ [الإسراء: ٥٩]. وظاهرها نفي الإرسال بالآيات بالرّغم من أنها كانت مطلباً ملحّاً للمشركين، كما جاء في آيةٍ أخرى في قوله تعالى: ﴿وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَـٰنِهِمْ لَئِن جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَا ۚ قُلْ إِنَّمَا ٱلْـَٔايَـٰتُ عِندَ ٱللَّهِ ۖ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَآ إِذَا جَآءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنعام: ١٠٩]، فإنّ المسألة لم تكن في مستوى الضّرورة، ولم تكن في واقع الحاجة للمهمّة الرّساليّة.

٣ - الضّعف البشريّ للأنبياء:

ونلتقي في آياتٍ أخرى ببعض مظاهر الضّعف البشريّ الفعليّ للأنبياء، وذلك كما في قصّة موسى الّذي خرج من المدينة خائفاً يترقّب، وكان يعيش الخوف من قتل فرعون

وقومه له: ﴿ وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنْبٌ فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴾ [الشّعراء: ١٤]، والخوف في ساحة التّحدي مع السّحرة: ﴿ فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِۦ خِيفَةً مُّوسَىٰ * قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْأَعْلَىٰ ﴾ [طه: ٦٧ - ٦٨]. ونجد ذلك في قصّة إبراهيم عندما دخل عليه الملائكة: ﴿ فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً ۖ قَالُوا۟ لَا تَخَفْ ۖ ﴾ [الذّاريات: ٢٨]. ونلاحظ ذلك فيما أمر الله به نبيّه ﷺ في تقديم نفسه للنّاس: ﴿ قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ إِنِّى مَلَكٌ ۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ ۚ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ ۚ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ ﴾ [الأنعام: ٥٠]، وقد ورد هذا المضمون في سورة هود في آية: ﴿ وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ إِنِّى مَلَكٌ وَلَآ أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِىٓ أَعْيُنُكُمْ لَن يُؤْتِيَهُمُ ٱللَّهُ خَيْرًا ۖ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِىٓ أَنفُسِهِمْ ۖ إِنِّىٓ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [هود: ٣١]، فإنّ هذه الآية ظاهرة في تأكيد بشريّة الرّسول ﷺ، وبأنّ كلّ ما لديه

إنّما هو من الله سبحانه وتعالى، يمنحه إيّاه بقدر حاجة الرّسالة إليه في حركتها في الحياة.

وثمّة إشارة في الآية إلى أنّ الغيب الذي قد يعلم الله به نبيّه، إنّما ينزل عليه بطريق الوحي، كما جاء التّصريح به في آيةٍ أخرى: ﴿ذَٰلِكَ مِنۡ أَنۢبَآءِ ٱلۡغَيۡبِ نُوحِيهِ إِلَيۡكَۚ﴾ [آل عمران: ٤٤]. وقد جاء في قوله تعالى: ﴿قُل لَّآ أَمۡلِكُ لِنَفۡسِي نَفۡعٗا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۚ وَلَوۡ كُنتُ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ لَٱسۡتَكۡثَرۡتُ مِنَ ٱلۡخَيۡرِ وَمَا مَسَّنِيَ ٱلسُّوٓءُۚ إِنۡ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٞ وَبَشِيرٞ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٨]، وهذه الآية تدلّ على نفي الفعليّة في وجود الطّاقة التي تدفع عن الإنسان الشرّ وتجلب له الخير، بحيث إنّها تأتي تدريجيّاً بمشيئة الله، لا بنحو خلق الطّاقة في الكيان النبويّ ليتحرّك من خلالها إراديّاً. ويؤكّد ذلك أنّه يتحدّث عن الواقع الّذي كان يصيبه بالسّوء بمختلف ألوانه، أو يمنع عنه الكثير من الخير؛ فكأنّه

يريد الإيحاء بأنّ ذلك لا يتّصل بدوره؛ لأنّ دوره هو البشارة والإنذار لقوم يؤمنون، وهو ما لا يحتاج فيه إلى علم الغيب إلا بما يرتبط بحركة الرّسالة في تاريخ الرّسالات في الأمم السّابقة. وهذا ممّا يوحيه الله إليه في القرآن الكريم من أنباء الغيب، في التّاريخ الّذي لا يعلمه هو ولا قومه.

خلاصة:

ومن خلال هذا الحديث الطّويل - في تعليقنا على مسألة الرسول البشر، والضعف البشري للأنبياء، وعلم الغيب - نستطيع أن نخرج بالفكرة التي تنفي الولاية التّكوينيّة للأنبياء وللأئمّة؛ لأنّ الدّليل لم يدلّ عليه؛ بل الدّليل قد يدلّ على العدم. نعم، يبقى أنّ الله يمنح الأنبياء الفرصة التي يواجهون فيها تحدّيات الكفر بالمعجزات عند الحاجة إليها؛

ولكنّ ذلك معنى آخر غير معنى الولاية التّكوينيّة التي يجري الحديث حولها؛ والله العالم.

الأولياء والوساطة في الفيض:

وهناك جانبٌ آخر يتّصل بشكل أو بآخر بقضيّة الولاية التكوينيّة، وهو الاعتقاد أنّ الأولياء والأنبياء وسائط الفيض وأولياء النّعم، من خلال فكرةٍ مفادُها: أنّ الله لا يفيض النعم على عباده بشكل مباشر؛ بل إنّ هؤلاء المقرّبين إليه هم الذين ينطلق الفيض على العباد من خلالهم، فهم الوسائط بين الله والناس، في الرّزق والعافية والحياة ونحو ذلك؛ الأمر الذي جعل البعض يتوجّهون إليهم بشكل مباشر في الدّعاء ليرزقوهم وليمنحوهم الشّفاء.

أمّا الّذين يناقشون هذا الخطّ الفكريّ

البعيد عن صفاء العقيدة التّوحيديّة، فيقولون بأنّ الله أراد لأوليائه أن يكونوا القادة الّذين يعملون على هداية النّاس وإرشادهم إلى خطّ التّوحيد الخالص، والإيمان باليوم الآخر، كما أراد لهم أن يدعوا النّاس إلى الأخذ في حياتهم بأسباب الهداية التّشريعيّة من خلال ما يوحي به الله إلى أنبيائه، بما يقرّب العباد إلى الله ويبعدهم عن مواقع سخطه ويحقّق لهم الأمن والاستقرار في كلّ مجالات الحياة. كما أنّه تعالى منح أولياءه من الأنبياء والأئمّة الشّفاعة في المهمّات الّتي يتطلّبها العباد، فيكرّمهم الله بالاستجابة لطلباتهم في رعاية بعض الحاجات لعباده، ما يجعل دور هؤلاء الأولياء دور المتوسّلين بالله، الدّاعين إليه من خلال الموقع الّذي منحهم إيّاه.

وأمّا الحديث عن كون الأنبياء والأولياء وسطاء في الفيض، فهو حديثٌ مخالفٌ

لظواهر آيات القرآن؛ لأنّها تتحدّث عن إفاضة الله النّعمة على عباده، وعن الرّزق الذي ينزله عليهم، وعن العافية التي يسبغها عليهم، وعن الهداية التي يلقيها في عقولهم، والتي ظاهرها أن لا توسّط لأحد فيها بينه وبين عباده؛ بل يتحقّق الفيض الإلهيّ في كلّ الأمور بالوسائل الطبيعيّة التي أودعها في الحياة بشكلٍ مباشر، فلا دخل لأحد من عباده، مهما كانوا قريبين منه، في عمليّة الإفاضة. وإليك بعض الآيات القرآنيّة التي تؤكّد الفكرة، قال تعالى: ﴿ قَالَ يَٰٓإِبۡلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسۡجُدَ لِمَا خَلَقۡتُ بِيَدَيَّۖ أَسۡتَكۡبَرۡتَ أَمۡ كُنتَ مِنَ ٱلۡعَالِينَ ﴾ [ص: ٧٥]. فهذه الآية واضحة الدّلالة على أنّ الله تعالى قد خلق الخلق بيديه، وهو كناية عن مباشرته للخلق دون وسائط من غيره؛ لأنّ من المعلوم تنزّهه تعالى عن كلّ عوارض الجسميّة.

وهكذا، فإنّ ظاهر غير واحدة من الآيات القرآنيّة، أنّه تعالى هو الّذي يباشر الخلق والرّزق وإنزال الغيث وغير ذلك من الظّواهر التّكوينيّة، وتجاوز هذا الظّاهر يحتاج إلى دليلٍ وهو مفقود.

وقال تعالى في آية أخرى: ﴿قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ قُلِ ٱللَّهُ ۚ قُلْ أَفَٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا ۚ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِى ٱلظُّلُمَٰتُ وَٱلنُّورُ ۗ أَمْ جَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ خَلَقُوا۟ كَخَلْقِهِۦ فَتَشَٰبَهَ ٱلْخَلْقُ عَلَيْهِمْ ۚ قُلِ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّٰرُ﴾ [الرّعد: ١٦].

وقال سبحانه أيضاً: ﴿قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ ۖ قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ﴾ [الأعراف: ١٢].

وفي آية أخرى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ

مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًاۖ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌۢ بِأَيِّ أَرْضٖ تَمُوتُۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرُۢ﴾ [لقمان: ٣٤].

ونقرأ أيضاً قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٖ ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِۖ يُغۡشِي ٱلَّيۡلَ ٱلنَّهَارَ يَطۡلُبُهُۥ حَثِيثٗا وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتِۭ بِأَمۡرِهِۦٓۗ أَلَا لَهُ ٱلۡخَلۡقُ وَٱلۡأَمۡرُۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الأعراف: ٥٤]، إلى غير ذلك من الآيات التي تؤكّد الفيض المباشر بما ينفي الوسائط إلا الوسائط التكوينيّة.

وفي ضوء ذلك، فإنّنا نرفض محاولات تأويل القرآن الكريم أو إخضاعه، في ظواهره البيّنة الواضحة، لبعض التّعقيدات الفلسفيّة التي أثارها البعض في تفكيرهم الفلسفيّ التّجريديّ.

روايات الفيض:

وعليه، فما قد يذكره هؤلاء لتأكيد نظريّة

الوساطة في الفيض من الرّوايات الواردة بلسان: «بكم فتح اللّه وبكم يختم، وبكم ينزل الغيث وبكم يمسك السّماء أن تقع على الأرض إلا بإذنه، وبكم ينفّس الهمّ... »[(١)]، أو الحديث القدسيّ المعروف على الألسن، «لولاك لما خلقت الأفلاك»[(٢)]، ومنها الرّوايات الواردة بعنوان: «لولا الحجّة لساخت الأرض بأهلها»[(٣)]، بتقريب أنّ حياة العالم مرتبطة بحياة الإمام والحجّة المعصوم، ولولاه لفني العالم وانتهى، ونحو ذلك التّوقيع الشّريف المعروف عن الإمام صاحب الزّمان: «وأمّا وجه الانتفاع بي في غيبتي، فكالانتفاع بالشّمس إذا غيّبها عن الأبصار السّحاب، وإني

---

(١) ورد ذلك في الزيارة المعروفة بالجامعة. راجع الخصال للصّدوق، ج ١، ص ٣٠٨.
(٢) بحار الأنوار، ج ١٦، ص ٤٠٦.
(٣) راجع: الاحتجاج للطبرسي، ج ٢، ص ٤٨، الكافي، ج ١، ص ١٧٩.

لأمانٌ لأهل الأرض كما أنّ النّجوم أمانٌ لأهل السّماء»[1]، وعن الإمام الباقر ﵇: «لو بقيت الأرض يوماً بلا إمام منّا لساخت بأهلها، ولعذّبهم اللّه بأشدّ عذابه، إنّ اللّه تبارك وتعالى جعلنا حجّةً في أرضه، وأماناً في الأرض لأهل الأرض، لم يزالوا في أمانٍ من أن تسيخ بهم الأرض ما دمنا بين أظهرهم، فإذا أراد اللّه أن يهلكهم ثم لا يمهلهم ولا ينظرهم، ذهب بنا من بينهم ورفعنا إليه، ثم يفعل اللّه ما يشاء وأحبّ»[2]، وأمثال هذه الرّوايات الواردة بهذا المضمون... إنّ ما يذكره هؤلاء، نعلّق عليه، بأنّ هذه الرّوايات ـ وبصرف النّظر عن ضعف السّند في بعضها، وعن أنّها أخبار آحاد، فلا تصلح

(١) م. س، ج ٢، ص ٢٨٤.
(٢) كمال الدين وإتمام النعمة للشيخ الصّدوق، ص ٢٠٤.

للاحتجاج بها على هذه المسألة العقائديّة التي تتطلّب أدلّةً تفيد اليقين أو الاطمئنان على أقلّ تقدير إنّما هي على وزان قوله: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ﴾ [الأنفال: ٣٣]، فإنّ الله رفع العذاب عن أمّة محمّد ﷺ بسبب كونه فيهم وموجوداً معهم، وهذا لا يدلّ إلا على مدى الرّحمة الإلهيّة التي اختصّ بها هذه الأمّة، ولا يثبت شيئاً زائداً للمعصوم إلا كونه سبباً لهذا الفيض الإلهيّ العميم، لا بأنّه واسطة في الفيض.

وخلاصة الفكرة: إنّ دراستنا للقرآن الّذي هو الأساس في العقيدة وفي مسألة المعجزة، لا يوحي بشيءٍ مما تكلّف به المحلّلون تجريديّاً من دون دليلٍ على المضمون؛ بل هو مجرّد تحليلٍ يؤكّد حال الإمكان الذّاتيّ الّذي لا يقتصر التّفسير عليه.

استفسارات
حول الولاية التكوينيّة

الولاية التّكوينيّة:

□ ما هي الولاية التكوينيّة؟ وما رأيكم فيها؟

○ يراد بمصطلح الولاية التكوينيّة ما مفاده: أنّ الله تعالى قد أعطى الأئمّة ولايةً على تدبير شؤون الكون أو قسم منها للنبيّ محمّد ﷺ وآله ﵈. وقد ذهب فريقٌ من العلماء إلى القول بها والاعتقاد بصحّتها، فيما ذهب فريق آخر إلى القول ببطلانها. والأقوى عندنا هو القول ببطلانها، وذلك لأنّ الولاية المذكورة إن كانت تعني أنّ الله

تعالى لا يتدخّل في إدارة تلك الشّؤون، فأوكل أمرها إلى غيره من الخلق المتميّز، كالملائكة والأنبياء والأوصياء، فهم يستقلّون في تدبيرها، فذلك هو (التفويض) الذي اتّفق علماء الشّيعة على رفضه في إطار ردّهم على من قال بذلك من فرقة المعتزلة، وحينئذٍ، فإنّ كلّ ما يقال في إثبات بطلان التّفويض هو مما يمكن قوله لإثبات بطلان الولاية التّكوينيّة.

وأمّا إذا كان مرادهم بالولاية التكوينيّة معنى آخر غير التّفويض، وهو أنّه تعالى قد شرّفهم فأوكل إليهم إدارة تلك الشّؤون، رغم كونه تعالى هو المدبّر الحقيقي والمهيمن الأوحد، فإنّنا نقول: حيث إنّ دورهم، صلوات الله تعالى عليهم أجمعين، هو هداية النّاس وقيادتهم نحو الخير، فإنّ ما عدا ذلك من شؤون هذا الوجود لا يتناسب مع

دورهم المذكور، ولا هو ضروريّ للقيام بدورهم هذا، ولا يصحّ اعتبار المعجزات من مصاديق الولاية التكوينيّة المدّعاة؛ لأنّ المعجزة حدث طارئ واستثنائي يجريه الله تعالى على يد المصطفين من الأنبياء لغرض إثبات نبوّتهم، وهو أمرٌ لا ريب في ثبوته، لكن لا يصحّ إطلاق مصطلح الولاية التكوينيّة عليه، ما دام ليس حالةً دائمةً لهم ﷺ كما هو المدّعى عند القائلين بالولاية التكوينيّة.

ومهما يكن من أمر، فإنّ الذي يجب الوقوف عنده في مثل هذه الأمور، هو أنّ الله تعالى قد أكّد في كتابه الكريم أنّه هو المهيمن على هذا الوجود والمدبّر له، لا شريك له في خلقٍ ولا في تدبير، وأنّه حين أجرى الأمور بأسبابها، ظلّ هو المحرّك لها والحاضر فيها والمدبّر لها، وأنّ الملائكة الكرام الّذين قد كلّفهم بشيء من شؤون التّدبير، لا استقلاليّة

لهم؛ بل هم: ﴿لَا يَسۡبِقُونَهُۥ بِٱلۡقَوۡلِ وَهُم بِأَمۡرِهِۦ يَعۡمَلُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٧]، ولم يثبت أنّ من عدا الملائكة من الخلق لهم دور معيّن في إدارة هذا الوجود، وبخاصّة الأنبياء والأوصياء ﴿عليهم السلام﴾، وما ورد في الرّوايات مما ينافي ذلك، هو إمّا ساقطٌ دلالةً لمنافاته لهذا الثّابت القرآنيّ، أو هو ضعيف السّند، فلا يعتدّ به.

والمحصّلة: ليس للنبيّ والأئمّة ولاية تكوينيّة، ولا يعلمون الغيب إلا ما علّمهم الله سبحانه وتعالى: ﴿عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ فَلَا يُظۡهِرُ عَلَىٰ غَيۡبِهِۦٓ أَحَدًا﴾ [الجنّ: ٢٦]. وعِلم الأئمّة ﴿عليهم السلام﴾ قد يكون من خلال تعليم الرّسول، كما جاء في حديث الإمام عليّ ﴿عليه السلام﴾: «**علّمني رسول الله ألف باب من العلم، فتح لي من كلّ باب ألف باب**»(١). وفي حديثه عن بعض المغيّبات

---

(١) مناقب آل أبي طالب، لابن شهر آشوب، ج ١، ص ٢٠٤.

قيل له: هل هذا علم غيب؟ قال: لا، ولكنّه علمٌ من ذي علم.

نظريّة الفيض:

□ لديّ سؤال حول القول بالوساطة في الفيض، فإنّ بعض من يؤمن بها، يصف الطّرف الآخر الّذي يجحد بها إمّا بالغلوّ، أو بالتّكفير. والمشكلة تكمن في أنّ هؤلاء يستندون إلى آراء بعض كبار العلماء المعاصرين، أمثال الشّهيد المطهّري والسيّد الطباطبائي والإمام الرّاحل الخميني والسيّد الخوئي، وغيرهم ممّن يطرحون وبقوّة مسألة (وساطة الفيض) بالطّريقة التي تنتقدها سماحتكم وبعض العلماء الآخرين، والتي ترون فيها شبهات الشّرك أو الكفر، والعياذ بالله؟

○ إنّ كون المعصوم سبباً في الفيض أو

اللّطف الإلهيّ أمر مقبول، وتؤيّده بعض النّصوص. أمّا الوساطة في الفيض فهي غير مقبولة؛ لأنّ الله تعالى - بظاهر القرآن الكريم - ينسب الخلق والتّكوين إلى نفسه جلّ وعلا، والله تعالى على كلّ شيء قدير، والمحذورات المذكورة في ذلك غير تامّة، وهي نتيجة الذّهنيّة الفلسفيّة التي لم تؤيّدها النّصوص الشرعيّة. وقول علماء كبار بهذه النّظرية أو تلك لا يعني ثبوتها؛ بل لكلّ رأيه، خصوصاً في مجال العقليّات التي تتأثر الأذهان باتّجاه معيّن فيها، وهذا الذي دعا إلى القول بالولاية التكوينية التي ينفيها القرآن الكريم، وما خالف كتاب الله لا يؤخذ به. وعليكم النّظر إلى الأدلّة للقضايا العقيديّة لا للأشخاص، فإنّ عظمتهم لا تعني أنهم معصومون، وعليكم أن تقرؤوا القرآن جيّداً لتعرفوا أنّ نظرية الفيض مخالفة للقرآن في حديثه عن

النبيّ ﷺ والأنبياء ﵈، وأنّ المشكلة هي أنّ التأثر بالفلسفة قد يبتعد عن النّصوص الشّرعيّة القرآنيّة.

الولاية التّكوينية والدّعاء:

□ هل فعل الإمام ﵇ للمعجزة أو الكرامة، كإحياء الميت أو إبراء الأبرص والأكمه مثلاً من باب الدّعاء، أي أنّه يدعو فيستجيب الله دعاءه، أو من باب الإقدار، أي أنّ الله أودع فيه قوّةً خاصّةً أن يفعل المعجزة؟ وإذا كان الجواب فرضاً أنّه من باب الإقدار، فما هي حقيقة هذه القدرة؟

○ حصول ذلك من باب إجراء الله لذلك على يديه، فيقوم به بإذن الله تعالى، إمّا كمعجزة عند الأنبياء، أو كرامةً عند الأولياء، لا من جهة وجود قوّة خاصّة لديه، أو - بعبارة

أخرى - ولاية تكوينيّة. وربما كان ذلك في بعض الحالات من باب استجابة الدّعاء.

كن فيكون:

□ ما رأيكم في ﴿كُن فَيَكُونُ﴾؛ هل عند النّاس قابليّة الوصول إلى ذلك إذا وصلوا إلى درجة معيّنة من الإيمان؟ وهل نبيّنا محمّد ﷺ وأهل بيته عليهم السلام حازوا هذه القابليّة ومارسوها؟

○ هذه القدرة ليست موجودةً لغير الله تعالى، وإنما هناك استجابة لدعاء المؤمن، خصوصاً الأولياء من أنبياء وأئمّة. والله تعالى يعطي أنبياءه وأولياءه القدرة في مواضع خاصّة، وذلك لحكمة، كالمعجزة للأنبياء، والكرامة للأولياء، وفي غير ذلك، ليس لأحد السّلطة التكوينيّة؛ فإنّ القرآن الكريم لا يثبت ذلك بل ينفيه.

□ إذا كان دعاء أهل البيت ﷺ مستجاباً، ألا تتحقّق بذلك الولاية التكوينيّة، بحيث إنّهم إذا أرادوا شيئاً دعوا الله فيحقّقه لهم؟

○ ليس هذا هو المراد بالولاية التّكوينيّة، فإنّ ما تقوله من إجابة دعائهم هو أمر مسلّم به، أمّا الولاية التكوينيّة، فيراد بها ـ في بعض محتملاتها ـ أنّ للائمّة وظائف في هذا الوجود، كإنزال المطر والرّزق، وتحريك الكواكب ونحو ذلك، وهي أمور نرى أنّها أقلّ قيمةً من أن يديرها البشر الكاملون من الأنبياء والأوصياء بعد أن شرّفهم الله تعالى بدور أسمى من ذلك، وهو توجيه العقول إلى الله تعالى، وقيادة المجتمعات نحو العدل. وشتّان بين إمام معصوم يوظّفه الله تعالى لتحريك الكواكب، وإمام معصوم يوظّفه الله تعالى للتّعريف به والدّلالة عليه.

ليلة القدر والولاية التّكوينيّة:

□ ما الدّليل عندنا على أنّ التنزيل في ليلة القدر يكون على المعصوم، وهو الإمام الحجّة ﷺ؟ وهل هذا التّنزيل، تنزيل الأمر أم تنزيل الحقيقة القرآنيّة؛ إذ إنّ في الأحاديث ما مضمونه أنّه لو رفعت ليلة القدر لرفع القرآن. أنا أعلم أنّه في ليلة القدر يقدّر الله أقدار العباد من الآجال والأرزاق إلى ما شاء الله تعالى، ولكن أريد أن تتفضّلوا أيضاً بمزيد من البيان حول كيفيّة إمضاء الحجّة ﷺ عليها (تقديرات العباد)؟ ولماذا يجب أن يمضي عليها إذا كان الأمر مقدوراً من قبل الله تعالى؟ هذه ليست أسئلة مشكّك، إنّما هي أسئلة من يرجو الاستزادة من العلم والمعرفة. أريد شرحاً مفصّلاً، وجزاكم الله خيراً.

○ إنّنا لا نرى صحّةً لما روي حول ذلك؛ بل إنّنا لا نرى للمعصوم ولايةً تكوينيّةً، لا في ليلة القدر ولا في غيرها، وإنّ ما يجري في ليلة القدر هو شأنٌ إلهيّ محض، فهو عزّ وجلّ وحده المتصرّف والمدبّر والمهيمن، والإمام الحجّة ﷺ ينتظر أمر الله تعالى له بالظّهور ليمارس دوره كإمام قائد، وهو في حال غيبته رهين هذا القدر الإلهيّ الّذي ما يزال يقدّر أنّ ثمة موانع عديدة تمنعه ﷺ من قيادة البشر على الأرض مباشرةً وفعلياً، وليس له ﷺ أيّ دور تكويني في تقدير أفعال العباد، ولا في إمضاء التقديرات الإلهيّة.

الولاية التشريعيّة والتّكوينيّة:

□ كيف هو التّفويض الإلهيّ لأهل بيت العصمة والطّهارة في الولاية التشريعيّة والولاية التّكوينيّة؟

○ نحن لا نرى لهم ولايةً تكوينيّةً، وأمّا ولايتهم التشريعيّة، فهي قيامهم بمهام الإمامة لحفظ الدّين وقيادة المؤمنين، وفقاً للشّريعة المطهّرة كما بلّغها رسول الله ﷺ ورسم معالمها القرآن الكريم.

الولاية التكوينيّة والغلوّ:

□ لقد قام السيّد في عدّة بيانات وفتاوى بالتّصريح بأنّ القول بالولاية التكوينيّة غلوّ وشرك، ولكنّنا نرى العديد من العلماء يقولون بها، كالمرحوم الإمام الخميني وأكثر العلماء، وخصوصاً أصحاب الحكمة المتعالية، وهي رائجة جداً في حوزة قمّ، كما أنّ السيّد ابن طاووس صاحب الكتب الكثيرة في الأدعية، ربما يشمّ منه رائحة التصوّف. فما هو رأي السيّد في ذلك؟

○ مقصودنا ممّا ذكرناه في بعض أحاديثنا

أنّ الاعتقاد بالولاية التكوينيّة ـ في نظرنا ـ ينافي التّوحيد الخالص، ولكن لا يلزم أن يكون القائلون بها مشركون أو غلاة؛ لأنّ ذلك ينطلق منهم عن رأيٍ خاصّ ودليلٍ يرونه.

أمّا بالنّسبة إلى التصوّف، فلا علاقة له بالمسألة هذه، وهو بعيدٌ عن مذهب أهل البيت ﷺ، لكن الأمر يختلط على الباحثين في الفلسفة الحديثة وعلومها، فينظرون إلى من اشتغل بعلوم الأخلاق والسّير والسّلوك وتهذيب النفس والآداب الشرعيّة على أنّه متصوّف، وهذا غير صحيح.

□ قرأتُ مقابلةً لكم على أحد المواقع الالكترونيّة، وقد جاءت هذه الفقرة التّالية، فأحببتُ أن أستوضحَ من سماحتكم عمّا إذا كان هذا النصّ الوارد هو ما قاله سماحتكم تماماً دون تغيير:

«ونحن في بحثنا العلميّ الكلاميّ، ننكر كلّ ما يُتحدَّث عنه في بعض الأبحاث، من القول بالولاية التكوينيّة للأئمّة ﷺ أو ما إلى ذلك، فنحن نعظِّمهم ونحترمهم، ولكنّنا نرفض الغلوَّ فيهم، ونعتبر أنَّ الغلوَّ كفر وشرك».

فهل القول بالولاية التكوينيّة داخلٌ في الغلوّ؟ وهل يجوز وصف المعتقد بالولاية التّكوينية بأنّه من الغلاة؟

ولكي لا يقع المسلم في الغلوّ، حبذا لو تتفضّل عليَّ ببيان المقصود من مصطلح الولاية التّكوينيّة؟

○ نحن نرى من خلال أبحاثنا أنّ القائلين بالولاية التكوينيّة أخطأوا في تصوّر المنزلة؛ وأنّ ذلك مخالف لظاهر القرآن، ويمكن للقائلين بها أن يتناولوا المسألة بما لا يؤدّي إلى الغلوّ الذي قد تختلف الاجتهادات في طبيعته، كما ينقل الشّيخ الصّدوق وشيخه، أنّ أوّل

درجات الغلوّ هو نفي السّهو عن النبيّ ﷺ.
أمّا المراد بالولاية التّكوينيّة حسب القائلين بها، فهو أنّ الأئمّة هم الذين يمثّلون الولاية الوجوديّة النظاميّة على الكون، فيتصرّفون فيه بقدرتهم الموهوبة من الله فيما أوكل الله إليهم من الأمر بالتّحريك والتّغيير، وهم الذين يديرون الأمور في الرزق وفي غيره مما يعرض للإنسان، ورأينا أنّ القرآن في حديثه عن النبيّ محمّد ﷺ والأنبياء ﵈ ينافي ذلك بشكل ظاهر.

سليمان والولاية التكوينيّة:

□ إذا كان النبي سليمان ﵇ لديه قدرة التصرّف في الريح والطير والجنّ، ألا يكون له القدرة على أن يأتي هو بعرش بلقيس؟ وما الفائدة من أنّ شخصاً آخر غير النبي ﵇ هو من أتى بالعرش؟ وهل يمكن القول إنّ

إحضار هذا الشّخص للعرش من الممكن أن يدلّ على أنّ النبيّ لم يكن قادراً هو بذاته على أن يأتي بالعرش فاستعان بآخرين لديهم القدرة؟ ثم إذا كان هذا الذي لديه علم من الكتاب يملك هذه الولاية التكوينيّة، فلماذا نرفض الحديث عن ولاية تكوينيّة لدى الرّسول ﷺ والأئمّة ﷺ، ونحن نعرف ما لديهم من علم ومن كرامات عند الله عزّ وجلّ؟

○ طلب النبيّ سليمان ممن حوله أن يأتوا بالعرش لا يدلّ على عدم إمكانيّة أن يدعو الله تعالى مباشرةً بذلك، ولكن كان له موقعه الذي من شأنه أن يتولّى أعوانه أموره، كما أنّ في ذلك حكمةً وإظهاراً لما أعطاه الله من قدرة. وهذا لا يمثّل ولايةً تكوينيّةً؛ بل هو محدود في ظرف معيّن، وليس لأحد من الخلق أيّة ولاية تكوينيّة؛ بل إنّ الله هو وليّ الكون

ومدبّره، وقد يمنح بعض أنبيائه وأوليائه بعض القدرات في حال الحاجة إلى المعجزة بشكلٍ محدود، من دون أن تكون لهم القدرة الذّاتيّة؛ لأنّ الله تعالى لم يجعل لهم ذلك، والقرآن دليل واضح على رفض الولاية التكوينيّة؛ بل إنّ دور النبيّ ﷺ هو التبشير والإنذار وهداية النّاس والدّعوة إلى الحقّ والشّهادة على النّاس، ولا شيء غير ذلك بنصّ القرآن.

ولاية التكوين والوسائل العلميّة:

□ في العلوم الحديثة، تبيّن أنّ هناك بعض العلوم والطّرق التي تمكّن صاحبها من التحكّم بالأشياء عن بعد، كتحريك بعض الأشياء دون لمسها، فإذا كان أحد الأشخاص العاديين في زماننا لهم القدرة على ذلك، فما الذي يمنع من أن يكون للإمام هذه القدرة، وهو الذي لديه علم الأوّلين

والآخرين؟ وإذا كان كذلك، أليس هذا بمثابة الولاية التكوينيّة؟

○ إنّ ما ذكر لا علاقة له بالولاية التكوينيّة، وإنّما يرتبط بحركة البحث العلمي التي قد تمكّن الإنسان من اكتشاف الكثير من الأسرار والمؤثّرات؛ لأنّ الكون قائم على مبدأ الأسباب والمسبّبات. أمّا محلّ الكلام في الولاية التكوينيّة، فهو شمول الولاية على عالم التّكوين بالقدرة المعطاة لا بالوسائل العلميّة، وهذا ما لم يثبت أنّ الله أعطاه لأحد؛ بل هو أمر يخالف القرآن الكريم الذي يؤكّد أنّ الأنبياء لا يعلمون الغيب ولا يملكون القدرة المطلقة حتى في دفع الضّرر عن أنفسهم، وقد قال سبحانه: ﴿قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ لَٱسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ ٱلسُّوٓءُ إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٨]، ﴿قُل

مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ ٱلرُّسُلِ وَمَآ أَدْرِى مَا يُفْعَلُ بِى وَلَا بِكُمْ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ وَمَآ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ [الأحقاف: ٩].

العفريت والولاية التّكوينيّة!

□ ما رأيكم في هذه الآية التي يستدلّ البعض بها على الولاية التكوينيّة التي أعطيت لسليمان في قوله تعالى: ﴿وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِى بِأَمْرِهِۦٓ﴾ [الأنبياء: ٨١]، أي أنّهم يقولون إنّه كان لسليمان الولاية على الرّيح؟ وأيضاً ما هو رأيكم في هذه الآية في قصّة سليمان أيضاً: ﴿وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَىْءٍ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْمُبِينُ﴾ [النمل: ١٦]. وهنا تكون المفاضلة، بأنّه إذا كان ربّ العالمين أعطى سليمان كلّ هذه القدرة، فمحمّد ﷺ أولى بكلّ هذه الأشياء التي أعطيت لسليمان؟

○ القرآن الكريم يدلّ على إعطاء

سليمان هذه القدرة بإذن الله تعالى، ولا يدلّ ذلك على إعطائها لغيره، وليس هذا من جهة ولايته التكوينيّة التي يدّعي البعض أنها مما أعطي للمعصوم، وإلا لو كان كذلك، فلماذا يخصّص الله تعالى نبيّه سليمان دون غيره من الأنبياء والأولياء؟! وهل إنّ العفريت كانت له ولاية تكوينيّة لقدرته على الإتيان بالعرش قبل قيام سليمان من مقامه؟! إنّ مثل هذه القدرة هي خصوصيّة قد يمنحها الله تعالى لبعض مخلوقاته بشكلٍ محدود، كما يعطي بعض خلقه قدرةً معيّنةً في جسده أو في عقله، ولا أساس للولاية التكوينيّة؛ بل إنّها خلاف القرآن، فضلاً عن الآيات الكريمة التي تدلّ على محدوديّة قدرة النبيّ ﷺ، وأنها قدرة بشر لا يملك أن يأتي بشيءٍ إلا أن يأذن الله تعالى له ويقدره عليه.

الولاية التكوينيّة والوظيفة التّكوينيّة:

□ إذا كان الله هو إله العالمين، ورسولنا بالتّحديد هو رحمةً للعالمين، فما المانع من أن يمنح الله رسوله العلم بأسرار الكون؟

○ ليس مستحيلاً أن يوكل الله تعالى شيئاً من أعمال الكون إلى أناس معيّنين، لكنّ النقاش في أنّه هل أوكل أو لم يوكل، ونحن نرى أنّه لم يوكل.

فأوّلاً: إنّ الله تعالى غنيّ عن العالمين، وليس له شريك في التّدبير.

وثانياً: إنّه قد أوكل ذلك إلى الملائكة من خلال الوظائف التي كلّفهم بها، ولكن لا بمعنى الولاية على الكون.

وثالثاً: لقد خصّص الله للأنبياء والأوصياء ﷺ دوراً معيّناً هو تبليغ الرّسالة، هذا الدّور هو أسمى بكثير من أن نفترض أنّ

للنبيّ أو الوصيّ دوراً في حركة الرّياح أو إنبات الزّرع أو ما أشبه ذلك من شؤون الكون.

ورابعاً: إن كان للنبيّ محمّد وآله هذا الدّور، فمن المناسب أن يكون لكلّ نبي ووصيّ آخر، مع أنّه لا أحد يدّعي ذلك.

وخامساً: إنّ ما ورد من النّصوص حول ذلك هو إمّا ضعيفٌ سنداً، أو قاصرٌ دلالةً، أو محمولٌ على معنى بلاغيّ ومجازيّ؛ بل هو مخالفٌ لظاهر القرآن الذي يدلّ على بشريّة الأنبياء وعدم علمهم بالغيب وعدم قدرتهم على فعل ما يتجاوز قدرة البشر.

تنقدونها وتؤمنون بها!

□ عند تحدّثكم عن الولاية التكوينيّة، نجد أنّكم تنتقدون هذه النظريّة ربما بشدّة، ولكنّكم تعتقدون كما يعتقد الآخرون، أنّ

الله منحهم قدرات خاصّة في ظروف معيّنة. أرجو إيضاح الأمر؟

○ هذا يختلف عن ذاك؛ فإنّ المراد من الولاية التكوينيّة هو أنّ الله تعالى جعل لبعض عباده أمر إدارة الكون والتصرّف في شؤونه، وهذا يختلف عن المعجزات التي هي حدث طارئ واستثنائي يجريه الله تعالى على يد الأنبياء لغرض إثبات نبوّتهم، فهو ليس حالةً دائمةً كما هو مدّعى القائلين بالولاية التّكوينيّة التي ينافيها القرآن الكريم الذي يجعل تولّي شؤون الكون بيد الله تعالى ومن وكله الله بذلك من الملائكة ﴿ ۞ قُلْ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ ٱلَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ ﴾ [السّجدة: ١١] في عمليّة وظيفيّة، وأمّا مهمّة الأنبياء، فهي هداية النّاس وقيادتهم. والقرآن الكريم نفى عنهم القدرة على التصرّف في أمور الكون وعلم الغيب وجلب النفع ودفع الشرّ

واستجابة طلب الآخرين في ذلك ونحوه، إلا أن يأذن الله به.

علماء الشّيعة والولاية التكوينيّة:

□ هل كان هناك علماء من الشّيعة في الماضي لا يؤمنون بالولاية التكوينيّة؟ وهل الشّيخ الصّدوق والشيخ المفيد يؤمنان بالولاية التّكوينيّة؟

○ القول بالولاية التكوينيّة ليس محلّ إجماع واتّفاق عند علمائنا، ونحن لا نقول بها؛ فإنّ القول بها مناف للقرآن الكريم، ولم يعط الله لأحد الولاية على الكون؛ بل إنّه تعالى هو الوليّ المهيمن على كلّ شؤونه، والمدبّر لكلّ أوضاعه، والأنبياء ليس من مهمّاتهم التصرّف في عالم الكون؛ بل الهداية للبشر، وهذا ما أكّده الله في كتابه الكريم.

كربلاء والولاية التكوينيّة:

□ المعروف أنّ سماحة السيّد لا يرى أنّ للأنبياء والأئمّة من أهل البيت ﷺ ولايةً تكوينيّةً، ومن المعلوم أنّ سيرة عاشوراء مملوءة بهذه الأمور من الكرامات والمعجزات والقدرات التي منحهم الله تعالى إيّاها بحسب الشّائع عند كلّ المراجع باستثناء سماحة السيّد، منها حضور السيّدة الزّهراء ﷺ في مجالس ابنها ﷺ، وتكلّم رأس الحسين ﷺ وهو مرفوع على القنا، ومنها عندما أرى الحسين ﷺ أصحابه مكانهم في الجنّة، وعندما قال الحسين ﷺ لعمر بن سعد إنّه يرى رأسه في أزقّة الكوفة، ومنها سلام مسلم بن عقيل ﷺ من قصر الإمارة إلى الحسين ﷺ وردّ الحسين ﷺ وهو في كربلاء، ومنها أنّ السماء والأحجار بكت دماً، ومنها خروج علي بن الحسين ﷺ من سجنه في الكوفة وحضوره

دفن الحسين ﷺ في كربلاء (طيّ الأرض)... وكلّ هذه الأخبار موثّقة في السيرة الحسينيّة العطرة، وبما أنّ سماحة السيد لا يرى للولاية التكوينيّة أثراً ومبرّراً لوجودها عند أهل البيت ﷺ والأنبياء، فما رأيه في هذه الأخبار الكثيرة، والتي هي موضع ثقة عند علمائنا؟

○ إنّنا لا ننكر حدوث الكرامة للمعصوم، وهي أمر آخر غير الولاية التّكوينيّة الّتي تعني إدارة الكون والتي هي لله وحده، وقد نصّ القرآن على أنّ الأنبياء لا يملكون لأنفسهم ضرّاً ولا نفعاً، وقد جاء في قوله تعالى: ﴿قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۚ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ لَٱسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ ٱلسُّوٓءُۚ إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٨]، وقال تعالى: ﴿قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ ٱلرُّسُلِ وَمَآ أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ وَمَآ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ [الأحقاف: ٩]. ولكنّ الكرامة

للمعصوم لا تحدث على مدار اللّيل والنهار؛ بل هي حالات نادرة يجريها الله تعالى في حالات استثنائيّة يعتمد عليها غالباً لنصرة الدّين، وما ذكرته لا يجري كلّه هذا المجرى، إضافةً إلى أنّ سند معظمها غير معتبر خلافاً لما تقول.

التّقليد في الولاية التكوينيّة:

□ أنا من مقلّدات السيّد الخوئي، فهل يجوز لي أن أعتقد أنّ الأئمة ﷺ عندهم ولاية تكوينية؟

○ لا تقليد في هذه الأمور، والاعتقاد لا بدّ من أن يكون عن دليلٍ وقناعة، ولم يثبت صحّة عقيدة الولاية التكوينيّة؛ بل هي في رأينا مخالفة للقرآن.

الفهرست

نظرة إسلامية حول الولاية التكوينية

